على أجنحة الروح

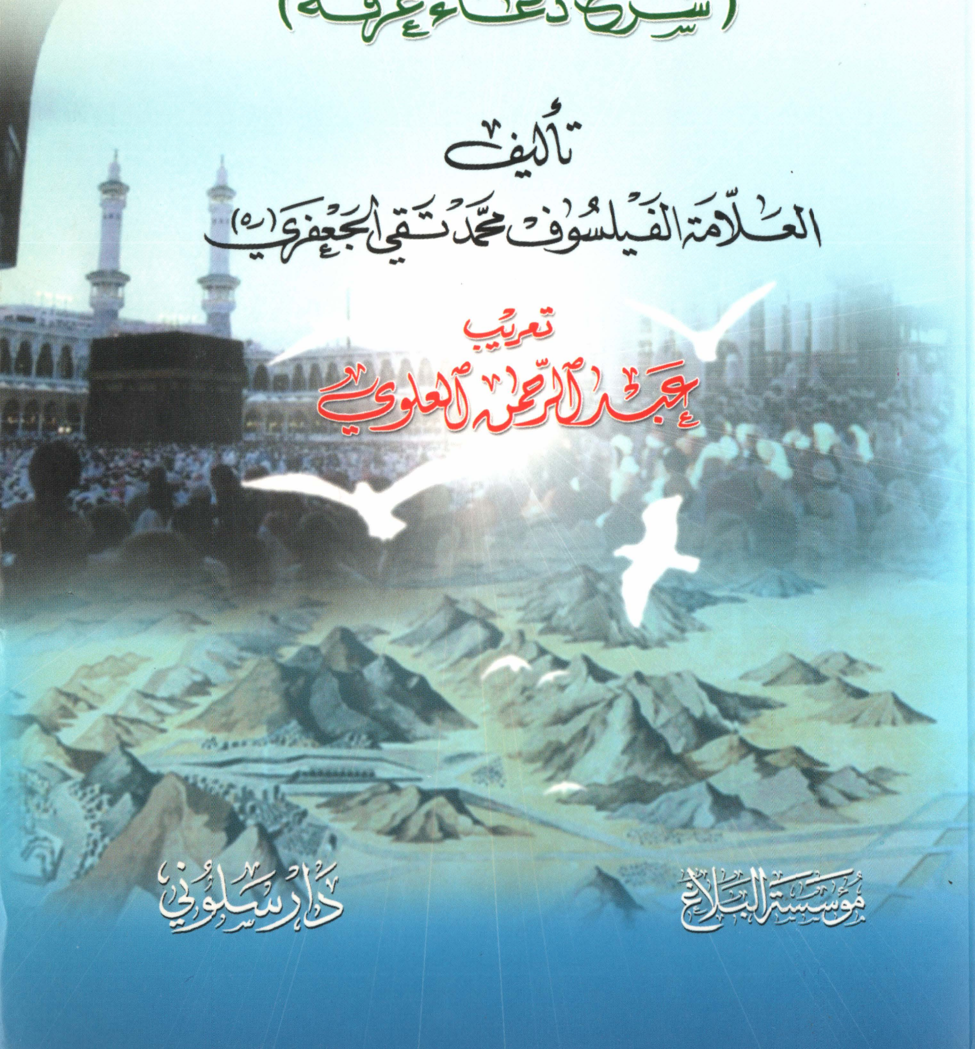
(شرح دعاء عرفة)

تأليف

العلامة الفيلسوف محمد تقي الجعفري (ره)

تعريب

عبد الرحمن العلوي



مؤسسة البلاغ

دار سلوني

على أجنحة الروح

(شرح دعاء عرفة)

على أجنحة الروح

(شرح دعاء عرفة)

تأليف

العلامة الفيلسوف محمد تقي الجعفري (ره)

تعريب

عبد الرحمن العلوي

مؤسسة البلاغ

الطبعة: الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب بئر العبد سنتر الإنماء ١ - ط٣ - المستودع : صفير - جانب فرن الأمراء
ص.ب : ١١ - ٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ - ١١٠٧ - هاتف : ٠٢/٥١٤٩٠٥ - فاكس : ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان
التوزيع في سوريا : دمشق - السيدة زينب (ع) - مكتبة دار الحسنين (ع) - هاتف : ٦٤٧٠٦٥٤
الموقع الاليكتروني : www.albalagh-est.com

مقدمة المعرّب

الامام الحسين عليه السلام، شخصية كبرى قلّ نظيرها في التاريخين العالمي والاسلامي؛ ومفخرة من مفاخر الدنيا؛ وبطل من ابطال المقاومة والتحدي؛ وعظيم ولج مدينة الخلود من اوسع ابوابها فتصدّر قائمة الخالدين.

لم يعش الامام الحسين لنفسه قط، بل عاش لدينه، ولم يحمل همومه ابداً بل حمل هموم قضيته، ولم يتأوه من اجل مصلحته في يوم ما، بل من اجل امته. ولهذا لم يصبر على ما قد لحق بالدين والقضية والامة من اذى وانتهاك وعدوان.. فرفع عقيرته معترضاً على كل ذلك وطالب بالعودة الى مسار الدين فهو المسار الصحيح الموصل الى الاهداف النبيلة، وإعادة الحق الى اهله والامور الى نصابها فبذلك تستقيم الامة وتتحقق عزّتها، ورفع كل لون من الوان الظلم والعدوان عن الجماهير، لأن في ذلك ضماناً لحق الانسان في الحياة الكريمة وتعزيزاً لدوره كخليفة لله في الارض.

ولم يكتف الحسين عليه السلام بالاحتجاج والدفاع بالكلام عن الدين والامة، بل حوّل احتجاجاته الى شعارات لثورة فريدة في تاريخ الثورات، وتضحية لا نظير لها بين التضحيات، فانفجر كالبركان مدوياً وهادراً في ملحمة لم تكن متكافئة من حيث العدد والعدة، ولكن كفّة الحسين كانت هي الراجحة على صعيد القيم والمبادئ والحق، بل كانت الكفّة الاخرى صفراً على هذا الصعيد. و ضرب الحسين عليه السلام والفئة القليلة الثائرة من اصحابه اروع الامثلة في الجهاد والفداء فقدموا ارواحهم الطاهرة من اجل الله وفي سبيل الله والمستضعفين، فتحولوا الى منار متألّق يضيء طريق الاحرار في كل زمان ومكان.

وهذه الشخصية التي برهنت على اخلاصها لله تعالى، وصدق تعاملها معه، حينما تقف

بين يديّ الله داعيةً متضرعةً، فلا شك أنّ دعاءها سيكون منطلقاً من أعماق القلب والضمير والوجدان، وممتزجاً بالوفاء، ومعجوناً بالعبودية الحقة التي لا تداخلها ذرة شرك.

حينما يجثو وليّ من اولياء الله كالحسين بن علي عليه السلام في محراب الله مستشعراً عبوديته الكاملة، وعجزه التام و خضوعه المطلق للخالق المهيمن، انما يعلمنا كيف يجب ان نتعامل نحن العبيد مع الله، وكيف علينا ان نحلّق على اجنحة الدعاء الى آفاقه التي لا حدود لها ولا قيود فيها، فتتحرر الروح تماماً من أصنام الارض والارباب المزيفين، وتنطلق من عقال الاوهام والاهواء والخرافات، وتدرك أنها لاتحقق حريتها وسموها ونقاءها الاّ بالتحليق المستمر في الفضاء الالهي والانتهال الدائم من منهل الفيض الالهي.

فالدعاء معراج العبد الى الله، ونافذته الواسعة التي يطل منها عليه، انه يهذّب النفس ويصقل الروح ويزيح عنها ما علق بها من شوائب وأدران ويجعلها نقية صافية، قريبة من الله، متجهة اليه، مقبلة عليه، قادرة على اداء دورها في الارض ومسؤوليتها الالهية بعيداً عن المزالق والحفر التي ينزلق اليها ويقع فيها الكثيرون ممن لا يتذوقون حلاوة الدعاء.

وما أعظم تأثير الدعاء حينما يكون في يوم عظيم من ايام الله مثل يوم عرفة وفي ارض الهية مقدسة مثل صحراء عرفات.. حيث الموقف المصغّر ليوم القيامة وحيث يقف الناس من الطبقات والاعراق كافة وجهاً لوجه امام الخالق العظيم فقراء عاجزين منهكين بائسين لاحول لهم ولا قوة الا بالله، ومقرّين بربوبية الله وعظمته وجبروته وهيمنته على هذا الكون بأسره. وحينئذ تموت عند العبد كافة نزعات الشر والرذيلة وتتحطم في نفسه صروح الكبرياء والغطرسة، وتحيا لديه روح الخير والصلاح، ويدرك عن وعي ومعايشة أن عليه ان يكون عبداً شكوراً لله، مخلصاً في تعامله معه ووفياً لعقيدته ودينه، وصادقاً في حركته نحو تحقيق الاهداف والمثل العليا.

وانطلاقاً من ذلك كانت مبادرة العلامة الاستاذ محمد تقي الجعفري في شرح دعاء

الامام الحسين في يوم عرفة وتفسيره، خطوة رائعة تصبّ في ماأشرنا اليه، وتحقق عملية صقل الروح وتهذيب النفس ووضع الانسان على ابواب الله وفي اجواء الله، كي يكون عبداً نافعاً في هذه الارض، مشاركاً في إرساء قواعد الدين وتحقيق العدل القائم على الاسس الالهية.

وشعوراً منا بما يمكن ان يلعبه هذا الكتاب من دور في شدّ الانسان الى الله، و توثيق العلاقة به، و تحويله الى كائن سليم نقي هادف. بادرنا الى تعريبه ادراكاً منا بأنّ القارئ العربي بحاجة الى مثل هذا الكتاب، لاسيما في هذا العصر الذي اشتدت فيه ضراوة الهجمة المادية بصورها وأشكالها المختلفة، والتي تحاول أنْ تُفرغ الانسان من جانبه المعنوي وتحوله الى كائن مهزوم عقيم فاقد الارادة.

نرجو أنْ نكونَ قد ساهمنا من خلال هذا الكتاب في اداء جزء من المسؤولية الملقاة على عاتقنا، وقدّمنا ما يمكن ان يساهم في خلق جيل انساني سليم بنّاء.

والله المسدّد المؤيد،

عبد الرحمن العلوي

طهران ربيع الآخر ١٤١٩

المؤلف في سطور

وُلد الاستاذ العلامه محمد تقي الجعفري في تبريز عام ١٩٢٥، وأنهى دراسته الابتدائية فيها. وتلقى النحو والصرف والفلسفة في المدرسة الطالبية. ثم انتقل الى طهران فدخل مدرسة مروي ودرس «الرسائل» و«المكاسب»، وحضر حلقات تدريس آية الله الشيخ محمد رضا التنكابني. وقرأ «المنظومة» وشيئاً من «الاسفار» لمدة عامين على فيلسوف عصره الكبير الميرزا مهدي الآشتياني.

وانطلق الاستاذ بعد ذلك الى مدينة قم المقدسة لمواصلة دراسته، فأمضى فيها عاماً واحداً عانى خلاله من ألوان الفقر والحرمان، إلاّ أنّ إصراره على الدراسة وشوقه العجيب لتلقي العلم، كان يهوّن عليه كل معاناة. وكرّ عائداً الى موطنه تبريز بعد سماعه بمرض والدته التي كان يكنّ لها حباً خاصاً. وما ان وصل اليها، حتى طرق سمعه نبأ وفاتها، فآلمه هذا الحدث كثيراً.

وبعد إقامة قصيرة في تبريز، يمّم وجهه شطر النجف الأشرف عام ١٩٤١ استجابةً لرغبة آية الله الميرزا فتاح الشهيدي، فولج في بادئ الأمر مدرسة الصدر، وانبرى لدراسة الجزء الثاني من كتاب «الكفاية». ثم بدأ بعد ذلك بتلقي دروس البحث الخارج عند المرحوم آية الله الشيخ محمد كاظم الشيرازي. كما قرأ اصول الفقه وبعض الابواب الفقهية مثل «المكاسب المحرمة» على آية الله السيد الخوئي، وكتاب «الصيد والذباحة» على آية الله السيد محمود الشاهرودي. ودرس بعضا من مسائل الفلسفة عند الشيخ صدرا القفقازي، والفلسفة والعرفان عند الشيخ مرتضى الطالقاني. هذا فضلاً عن حضوره محاضرات آية الله السيد الحكيم وآية الله السيد جمال الكلبايكاني وآية الله الميلاني. وأمضى سبعة اعوام كاملة متتلمذاً على آية الله السيد عبد الهادي الشيرازي، وانبرى

بشغف لمطالعة مختلف كتب العلوم الانسانية التي كانت ترد على النجف من مصر وايران وتركيا ولبنان. ووقف بشكل كامل على افكار ومعارف الشرق والغرب.

وبعد انهائه للدراسة واستيعابه الواسع لكافة ما تلقاه من علوم ومعارف على شتى الأصعدة، انبرى لتدريس بحوث الخارج في الفقه والاصول، لاسيما كتابي «الكفاية» و«المكاسب». وكان يحضر دروسه العديد من الطلبة ومن بينهم الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر، حيث تتلمذ عليه مدة عام كامل.

وأقام سماحته في النجف الاشرف مايقرب من ١١ عاماً، استطاع خلالها ان يصوغ شخصيته العلمية والثقافية، ويقطع شوطاً بعيداً على صعيد المعرفة، وينال درجة «الاجتهاد» في سنيّ الشباب.

وللمؤلف مايربو على ثمانين مصنَّفاً اهمها: «تفسير ونقد وتحليل المثنوي» في ١٥ جزءاً، و«ترجمة وتفسير نهج البلاغة» في ٢٦ جزءاً.

ويتمتع الاستاذ الجعفري بذاكرة قوية للغاية، ويحفظ حوالي مائة الف بيت من الشعر العربي والفارسي. وطالما شوهد وهو يتلو اثناء التدريس عدة مقاطع من أحد الكتب الفارسية او العربية دون مكث وتأمل ودون الرجوع الى الكتاب.

ومن أهم خصوصيات العلاّمة الاخرى: سعة معلوماته. فله قراءات ومطالعات كثيرة وعميقة جداً على مختلف الأصعدة العلمية والفلسفية والدينية، بل حتى على صعيد علم النفس والاجتماع والحقوق. وله اطلاع ايضاً على بعض العلوم الاكاديمية كالفيزياء والرياضيات.

وله دراسات واسعة وذوق رفيع في الأدبين الفارسي والعربي، حتى انه يشير في كتاباته الى اشعار قلما يلتفت اليها اساتذة الأدب.

ويُعدّ من المهتمين بالأدب الغربي، ويقرأ باستمرار القصص والروايات الغربية، ويولي اهتماماً خاصاً لبعض شخصيات الادب الغربي مثل شكسبير، وفيكتور هوغو،

ودوستويفسكي وتولستوي...، وبالزاك، ولامارتين، حتى انه استنبط الكثير من آرائهم العميقة من بطون آثارهم، وطرحها في مختلف بحوثه ومؤلَّفاته.

ومن سعة معلوماته، اننا نجد في كتابه «ارتباط الانسان والعالم» ـ الذي ألّفه وله من العمر ٣٢ عاماً ـ انه اعتمد على اكثر من ٢٥٠٠ كتاب في شتى الأصعدة العلمية والفلسفية، الشرقيه والغربية. وقلّما تُتاح مثل هذه الدراسة والمتابعة الواسعة لشخص آخر.

ومن ابعاد شخصيته الفكرية، تميزه بالاستقلال الفكري، فهو لا يخضع لآراء من يطالع نتاجاتهم مهما كانت هذه الشخصيات قريبة الى نفسه، بل يقف منها موقف المتأمّل المتروي، ويلجأ الى نقدها ودراستها قبل ان يعطي رأيه النهائي فيها.

وطالما حثّ الطلبة اثناء دروسه على الاستقلال الفكري، لأنه يرفض الأخذ بفكرة او رأي ما دون دليل او برهان، ويدعو طلبته الى ذلك. ولهذا نجده يراعي الإنصاف والحق دائماً في تقويمه لآراء الشخصيات العلمية.

و لبّى العلّامة الجعفري دعوة اللّه وانطلقت روحه نحو رضوانه في ٢٦ رجب عام ١٤١٩ الموافق ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٩٨. و دفن الى جوار مرقد الامام الرّضا عليه السلام بمشهد المقدّسة.

مؤسسة تدوين و نشر آثار العلامة الجعفري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة في تعريف الدعاء

الدعاء هو تلك الحالة المعنوية التي تشدّ وشائج الالفة والحب بين الانسان وخالقه، وتضعه في مدار الجاذبية الربوبية. فحينما تدرك موقعك الحقيقي في عالم الوجود العظيم، فأنت حينئذ تعيش في آفاق الدعاء، لأنّ هذه الحالة هي الوحيدة التي تضع فيها دون اختيار لوحة «كلّ وجودك» بين يدي رسام الأزل والأبد. واذا شئت ان تتمتع للحظات من عمرك بذروة الاهتياج النفسي، فادفع بنفسك الى أحضان الابتهال والدعاء؛ ولو رغبت في ان تكون شؤون حياتك كافة منطبعة بالاصالة وقابلة للتفسير فاتجه الى الدعاء ايضاً.

لا أحد يشكّ بحتمية حلول ذلك اليوم الذي ستضطرب فيه نفوسنا، وتثور فيها الاعاصير تحت ظل من مضمون البيت التالي:

من أنا؟ حياة تبددت
وأسطورة شارفت على الانتهاء [1]

وهناك شاعر حكيم يتحدث عن لساننا نحن بني الانسان، وما أروع مايفصح عن الحقيقة:

«نضع شفاهنا على كأس الحياة بعيون مغمضة، ونذرف الدموع الساخنة على حافتها الذهبية، ولابد اَن يأتي ذلك اليوم الذي يزيح فيه الموت الحجاب عن أعيننا، وينتزع منا

---

١ ـ للشاعر نغارنده رحمة الله عليه.

كل مانهفو إليه في حياتنا، وسنعي يومئذ أن كأس الحياة كانت فارغة منذ البداية، واننا لم نرشف منها سوى راح الخيال منذ اليوم الاول».

اليست الحياة الخالية من الدعاء والواقعة خارج مدى جاذبية الكمال الالهي، هي تلك الكأس الفارغة نفسها التي نلصقها بشفاهنا منذ اليوم الاول الذي تطأ فيها اقدامنا هذه الارض، ثم ننبذها حينما نودعها الوداع الاخير؟!

لاشك اننا سنغمض أعيننا جميعاً عاجلاً ام آجلاً عن هذه الكرة الارضية. وهذه الكواكب، والشمس الساطعة، وهذه المجرات التي طوت مليارات الاعوام ومازالت مستمرة في تألّقها؛ ولابد ان نرقد آخر المطاف على فراش التراب الذي تكتنفه الأسرار. نعم، ستطوي انفاسنا الاخيرة آفاق السماء الزرقاء وتشق طريقها على المدى القريب او البعيد.

ولهذا وقبل ان تلمح عيوننا المنظر الاخير ثم تطبق أجفانها؛ وقبل ان تتبس شفاهنا بالكلمات الاخيرة ثم تصمت؛ وقبل ان يبذل كياننا الباطني آخر محاولاته لمرافقة الروح، تعالوا لنرَ أيّة بضاعة سنقتنيها من سوق الوجود المضطربة في مقابل ثروة العمر القيّمة التي ننفقها عملة عملة في هذه السوق؟ او لستَ:

حينما تودع القلب عند كل هوًى
يُسْتَلَبُ منك شيء في الخفاء «مولوي»

هيا كي لا نتجاهل الاشارات الذهبية المنبعثة من أجرام وقوانين هذا الكون العظيم غير المتناهي. انها جميعاً تدعونا للمساهمة في الدعاء والتضرع الى الله العظيم.

لِنُمْسِك لحظات عن مشاهدة أنفسنا، والطواف حول ذواتنا، ونُمعِنْ النظر في الأفق الممتد، ثم لنرفع أيدينا عالياً نحو السماء تلبيةً لاشارات كائنات هذا الكون غير المحدود، ونحرك شفاهنا هاتفين: آه يا الهي!، معلنين براءتنا من «العناد» في هذا العالم الهادف.

او ليس:

وكافة كائنات الارض والسماء منهمكة في الذكر والمناجاة
والقيام والقعود عبوديةً له

«سعدي»

قد تبلغ حالة اليأس والقنوط والحزن ذروتها عندنا، لكنها سرعان ما تتحول الى امل وحبور مثيرين للدهشة، او تشعّ فينا ـ وسط عاصفة اليأس والقنوط ـ بارقة امل مذهلة من احدى زوايا الروح الخفية، فتضيءُ كافة وجودنا، وتهمس في أفئدتنا:

لاتقنط لأنك تجهل اسرار الغيب
ولا تحزن فخلف الستار لُعَبٌ خفيّة «حافظ»

إن هذه الهمسة البهيجة هي التي تحول دون تحطم الجسم، والاستسلام للموت عند مجابهة الشدائد والمحن، وتقودنا الى الدعاء المنعش هذا: إلهي! شعورنا باستضافتك لكياننا الصغير والصغير جداً في اقليم الوجود، هو الذي جعلنا نطيق العيش في هـذا القفص الضيق.

نعم:

إستأنسنا بضيافة الصيّاد
وإلاّ لحطمنا القفص بنصف آهة
وأنا ثمل في القفص برؤيةالصيادليلاً ونهاراً
ثمالة لا أشعر معها انني في قفص

وفي تلك اللحظة التي يتجاوز فيها الحد سرورنا واطمئناننا وتعظيمنا لغير الله، نجد انفسنا ثانية في منحدر نوع من الحزن واليأس والغموض الذي لانرى خـلفه سـبباً واضحاً.

فهل تعلم ما هي تلك اللحظة؟

انها اللحظة التي لجأت فيها الروح ـ دون استئذاننا ـ الى ذلك الجانب من العالم وتمتمت بهذا الدعاء الذي تكتنفه الألغاز: إلهي! أضاع هذا الانسان الضعيف نفسه ثانية في خضم هياج الافراح والثقة بغيرك؛ وفقد عنوان نفسه، فتلطّفْ عليه وأعده الى ذاته من جديد.

إلهي وربي وسيدي ومولاي، هي بوارق لامعة تنبعث من أعماق نفوسنا، وتغور في أعماق عالم الوجود، وتضفي على هذا العالم من التألّق والسطوع مايجعله مؤهلاً لأن يحظىٰ بعناية الله ورعايته. ومن يزعم انّ «الزهرة الواحدة لا تأتي بالربيع»، عليه ان يعلم ان تلك الزهرة التي لا تجلب الربيع، هي زهرة بستان الطبيعة، فلو أذبلت رياح الخريف جمال هذا البستان ونضارته، فان تفتّح زهرة واحدة فيه لايأتي بالربيع. الا انّ الزهرة التي تظهر في بستان نفوس الناس، وتزرع ابتسامة الفرح بين الشفاه، لابد وأن تأتي بالربيع وتؤدي الى تفتّح كافة ازهار بستان الوجود، فتهبّ عليها نسائم الربيع التي تبعث الحياة. وحقاً ما قيل:

اقتحمي بستان الكون سَحَراً واحداً ياغبطة الربيع

كي يخرج شبح الخريف من روض العالم «مولوي، ديوان شمس»

فليس بين نشاطاتنا النفسية ظاهرة أعمق وأوسع من نشاط الروح اثناء الدعاء. فإدراكاتنا، ومشاعرنا، وخيالنا، وفكرنا، ووجداننا الاعظم من عالم وجودنا، تمتزج جميعاً مع بعضها اثناء الدعاء وتبعث الثورة في بحر الروح؛ وتحدث هذه الثورة بشكل منسق وبصورة عظيمة وجديّة بحيث لاتطهّر باطننا من كافة الاوساخ والأدران فحسب، بل و تغمرنا بشعور من القناعة بقرب انقشاع ايام الهجران من خلال امتداد الروح على كافة الوجود، ووصولها الى الطمأنينة النهائية بدخولها الى جاذبية الكمال الالهي.

ومن المحال ان لايشعر المرء بالاغتراب أثناء حياته في هذا العالم المضطرب، فتمر لحظات نشعر معها اننا غرباء عن انفسنا. فاسمعوا ماذا يقول حافظ، العارف بالإنسان:

صدري ينوء بالألم، فهل من دواء؟
وقلبي تمزقه الوحدة، فهل من انيس؟

وحينئذ يشعر:

لا وجود للانسان في عالم التراب
ولابد من خلق عالم جديد وإنسان جديد

فمن هو ذلك الرفيق الكفوء القادر على تحويل هذه الغربة الموحشة الى أنس وألفة؟ ونحن لانشك أبداً أن لا وجود لأنيس كالدعاء الذي بإمكانه ان يغيّر هذه الغربة وذلك الفزع الى أنس وسكون.

فعند الدعاء وحين استشعار زوالنا وفنائنا الحتمي، ندرك أنّ حياتنا الممدودة العابرة قياساً الى عمر عالم الوجود ليست اكثر من ثانية واحدة من مليارات القرون والاعصار. وسرعان مايداعب شامة روحنا نسيم من الابدية نستشف منه ان عمر عالم الوجود ليس سوى ثانية واحدة من الابدية، فتنبعث حينئذ من أعماق نفوسنا أنغام منعشة ذات محتوى غامض تنتشلنا من رعب الفناء وتنقذنا من هواجس الزوال، وتداعب أفئدتنا بأعذب الكلمات:

ياقلب لاتحزن لو حطم طوفان الفناءصرح الوجود
لأنّ نوحاً ربان سفينتك

وحينما تبلغ هذه الانغام ذروتها، تصدح:

طالت ايام الحزن علينا
وامتزجت هذه الايام باللوعات
واذا ذهبت الايام، فقلْ لها آذهبي
وابقَ انتَ الذي لا نقيّ غيرك «مولوي»

لقد ادركنا جيداً اننا نغوص في بحر الجهل، وان علمنا ليس سوى قطرة في مقابل ذلك البحر المعتم الكبير. وهذه حقيقة يعرفها كل عاقل مفكر. لكننا في لحظات الدعاء، وعندما يُجري الله سبحانه هذه الترنيمة الملكوتية على ألسنتنا:

قطرة العلم التي وهبتها من قبل
أوصلهـــا ببحـــارك «مولوي»

نشعر اننا نَسْبح في بحر من النور، لأننا أُوصلنا هذه القطرة الصغيرة من علمنا ببحر علم الله تعالى.

فطائر روح الانسان يتحرر عند الدعاء من أَغلال القفص، ويحلّق اقصى مايستطيع، ولن يعود مرة اخرى الى زنزانة ذلك القفص الأرضي اذا كان ذلك التحليق صحيحاً. لأن جسمه الارضي سيكون حينئذ مرصداً باتجاه اللامتناهي، ولن يُغمض عينه عن النظر اليه.

من الممكن ان نرفع طرفنا الى السماء اثناء الدعاء ونُدير البصر في تلك السماء التي لانهاية لها؛ أو نطأطئ رأسنا ونطيل النظر الى ذرة صغيرة من التراب والرمل، او الى ورقة نبات وقطرة ماء؛ وربما نخرج أيدينا من قعر بئر الطبيعة ونمدها الى السماء؛ بل وربما نحرك إصبعاً واحدة الى الأعلىٰ، او نقنع بحركة بسيطة للرأس. ويُحتَمل ان نكتفي فقط بإطباق الأجفان.. لكن ليس لنا في جميع الاحوال سوىٰ هدف واحد لاغير، ألا وهو:

رباه! إنّ هذا الطائر الصغير الحبيس في قفص الجسم، هاهي أجنحته تخفق من اجل الانطلاق اليك، وليس من اجل ان يفلت من هذا القفص ويحلق في عالم الوجود الواسع، لأنّ الارض والسماء ورغم اتساعهما ليسا سوى قفص اكبر لهذا الطائر العاشق. انه يئن من اجل ان تفتح بوجهه مصاريع ابوابك غير المتناهية في هذا الوجود ـ الذي هو موضع تجلي عظمة جمالك وجلالك ـ وتدعوه اليك. فعين الحاجة التي أرنو بها إليك، انما هي هبتك لي، وهذا الجناح الرقيق، انما هو من صنع يديك القويتين.

رباه! أنت الذي منحتني هذه العضلة التي نسميها القلب. إلٰهي ان هذا القلب الذي وهبته لي، لاتشفي غليله آلاف الميول والرغبات التي تُعرض عليه. فياصاقل قلوب الناس، انت تعلم أنّ هذه المرآة التي صَقَلْتَها، هائمة بضياء جمالك، ويعود استئناسها بهذا الجمال الربوبي الى بداية وجودها الذي يشعّ من لطفك.

ولا عجب لو تمزق القلب من ضنىٰ بُعدِكَ وفراقِكَ.

كلّ من ابتعد عن أصله
يبحث عن ايام وصله «مولوي»

فمن الممكن ان يتحقق الدعاء في كافة الاوقات واللحظات، لأنّ، هناك منافذ مفتوحة باستمرار في جدران هذا الكون القديم باتجاه اللانهاية، وبامكاننا مشاهدة تلك الجهة من العالم من مرصد هذا الجسم الارضي. وعندما يعزف نشيد الابتهال من اعماق النفس، فانها تشعر بشوق وحماس الى الصمت المطلق في عالم الطبيعة. وربما تجد الروح الانسانية في هذا الصمت المطلق سرّاً آخر، وهذا ماأضفىٰ على دعاء الليل لذة خاصة لا نظير لها.

وقد يبدد حماسنا النفسي كل شعور باللذة، فنرتفع الى مافوق اللذة، ونصل الى مقام الابتهاج الكامن في ذرات روحنا.

وفي تلك الاثناء التي يلقي فيها الظلام المطلق جرانه على الأفق الذي يحيط بنا، ربما «يمر دربنا الشمسي في وسط الليل».

ففي ساعات الليل تكشف كافة الاوهام والتصورات اليومية عن هشاشتها، ثم تختفي من على شاشة الروح. وتجري افضل عناصر لاشعورنا، في كيان الروح، فينعكس عالم الوجود في مرآة الروح نقيّاً من شوائب خيالاتنا وأوهامنا التي لا أساس لها. وربما يرمز اللون الازرق الذي يبدو خلف عتمة افق كوكب الارض الى نهاية الظلام الذي يوشّح الكون المتّجه نحو فجر ذلك الجزء من العالم الخارج عن إدراكنا الكمي والنوعي.

ومنذ مطلع الحياة الانسانية والى يومنا هذا، تصاعدت مختلف الأدعية من هذا العالم نحو الملكوت الإلهي، والتي حققت الحكمة الربانية للوجود في ذهن المبتهل الداعي. وعلى امتداد الزمن الطويل، ماأكثر الزوارق والسفن التي تفلت من يد البحارة والملاحين فتبتلعها دوامات البحار المرعبة، ولم تطرق أسماعَ طواقمها أصوات تُبَشّر بقدوم أحد لنجدتهم، فيفقدون أي بصيص امل بالنجاة، ويستسلمون لأذرع الامواج العاتية، وينسون كل شيء؛ الا ان يد الحنان الالهي والرحمة الربانية سرعان ماتزيل عن نفوس هؤلاء السابحين بين الموت والحياة أدران التلوث. فحينما تنغمر رؤوسهم تحت الماء، يتضرعون الى الله بصمت، وحينما تسمح لهم الامواج الهادرة بإخراج رؤوسهم ثانية، تهتف ألسنتهم بدعاء «يارب». وربما تنتهي فرصتهم قبل ان يكملوا الدعاء، فيلفظون نصفه بألسنتهم ونصفه بقلوبهم. انهم يقطعون بمثل هذا الدعاء المسافة بين الارض والسماء في لحظة واحدة، فإما يجدون النجاة واما ينسون مرارة سكرات الموت. وتنقل امواج البحر الهادرة أنينهم وتضرعاتهم الى ذويهم المحدقين عند الساحل في تلك الامواج، فيبعثون الى ارواح الغرقى مع نسيم البحر آخر مالديهم من نشيج ودعاء يحملان نغمة الاستسلام للمصير.

ولا يجد الضائعون في البوادي الشاسعة سوى السماء الزرقاء وكتل من السحب وصفير الرياح. وليس هناك من يحوّل قلقهم الى هدوء وطمأنينة، ويأسهم الى امل سوى الدعاء، وليس لهم من ملجأ سوى التضرع. فيقبلون على خالق البيداء والسماء المترامية الاطراف، وينسون مرارة الغربة، ويتذوقون طعم حلاوة الوطن.

ويقطع المرضى اي أمل يعلقونه على حذاقة الطبيب في خضمّ تعذيب الآلام المبرّحة، فيطلقون التأوهات، لكنهم يواصلون جهودهم، ويتوسلون بكل شيء لاستعادة عافيتهم، فيشعّ نور الله في قلوبهم، وتتقوى عزائم نفوسهم حينما يهتفون: آه يا ربنا الرحيم! فيتفتحون كالزهور رغم ذلك الداء العضال، وتهمس شفاههم:

أَشربُ السم حلواً لأن الشاهد هو الساقي
وأَتجرّعُ الألم لأن الشفاء منه «سعدي»

ويلتف الأهل حول سرير عزيزهم المريض، الذي هو ثمرة حياتهم الوحيدة، وينتابهم القلق خوفاً على ربيع حياته من الخريف وعلى نضارته من الذبول. وتنبجس قطرات الدمع من عيونهم وتنحدر على وجه المريض الشاحب الذي يصارع مخالب نسرالموت،ويعجز عن الرد على ما يبدونه نحوه من حبّ ولوعة.

ويرفعون عيونهم المغرورقة بالدموع نحو ابواب عناية الله ويستسلمون لمشيئته وهم يرددون: ياربُّ الحياة والموت، ياربّ يا رحمٰن!

ان كبار مفكري ونوابغ العالم المهتمين بمعرفة الانسان والعالم، عندما يدركون ضعفهم وعجزهم عن فهم أسرار الوجود وعظمته، يتجهون الى الله تعالى داعين متضرعين:

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار»[1].

وهناك فئة أخرى تقبل على الله وتتوسل بباب عظمته لا من أجل قضاء حوائجها المادية، بل لتحديد موقعها الوجودي بشكل كامل والانتفاع به. وهذه الفئة هي من افضل افراد النوع الانساني الذين يفهمون معنى الدعاء ويحققون منه افضل المكاسب. وفي المقابل هناك فئة اخرى يؤثّر الدعاء على افكارها وتصوراتها وعملها وارادتها وكافة أتراحها وأفراحها، فيترنم كل فرد من افرادها قائلاً:

انا مبتهج في العالم، لأن ابتهاج العالم منه
وعاشق لكل العالم، لأن العالم كلّه منه «سعدي»

انها اتخذت الدعاء وسيلة للهرب من قانون العلة والمعلول، والفرار من النظام

---

١ ـ آل عمران، الآية ١٩١.

والانسجام اللذين يسيّران عالم الوجود. وعندما تدرك ان الله العظيم لم يخلق هذا الكون اللامحدود إلاّ من اجل العمل والسعي والتحرك، لاتسحب نفسها بعيداً عن نظام الوجود، بل تقوم بأفضل المساعي على صعيد الحياة المادية والمعنوية، وتنشد ليل نهار:

نحن أحياء لأننا لا نهدأ
وأمواجٌ هدوؤها في عدمها «إقبال اللاهوري»

وتنسجم مضامين ادعيتها دائماً مع الآية التالية:

«وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ»[١].

ولابد ان تشاهد عند عودتها الى انفسها أن كافة اجزاء واعضاء الجسم المادي والظواهر النفسية في حالة سعي دائم مستمر. كما ان الارتعاشات والترددات النفسية التي تعايشها باستمرار، تبرهن لها على أنْ ليس هناك شيء في الحياة اهم من العمل والسعي للحياتين المادية والمعنوية. وحتى اولئك الذين أمضوا عمرهم بالصمت، فانهم يعيشون التضرع والابتهال ايضاً من خلال افكارهم الباحثة عن الحقيقة، شريطة ان لا يطوفوا حول انفسهم.

علىٰ شفتيه قفل وفي قلبه أسرار
الشفة صامتة والقلب يترنم
والعرفاء الناهلون من كأس الحق
يَعْلَمون الأسرار ولا يكشفونها لأحد
ومَنْ علّموه أسرار الحق
ختموا عليه وأقفلوا شفتيه «مولوي»

---

١ ـ النجم، الآيتان ٤١ و ٤٢.

وعلينا ان نعي حقيقة ان العجز عن كشف الاسرار، لا صلة له بالدعاء القلبي والابتهال اللفظي القابل للاظهار؛ ولابد من تلفّظ الدعاء من اجل التأكيد على فهم معناه:

وللدعاء صورة اخرى لابد للداعي من تفهمها، وهي عبارة عن الافكار والرؤى التي تتلاطم في رأس الانسان، لكنها تبحث في نفس الوقت عن طريق للنجاة من ذلك التلاطم.

الأدمغة التي تتلوى من الاضطراب
انما هي زوبعة حِجْر صحرائك الطاهر «صائب التبريزي»

وقد يتوقف الدماغ احياناً عن نشاطه المثمر، في حين يستمر المجهول في تحفيز الانسان وحثّه على ايجاد مخرج له. وليس في هذه الحالة من وسيلة بامكانها ان تبعث النشاط الهادف النافع في الدماغ غير الدعاء والذكر:

قلنا مايكفي، وعليك انْ تفكر
فاذا كان الفكر راكداً فاذكر
فالذكر يهزّ الفكر ويحركه
فاتّخذه شمساً لهذا الكئيب «مولوي»

فالدعاء إذاً له الكثير من الاهداف:

١ـ رباه! وقد اصبحتُ على استعداد للتكامل المادي والمعنوي في هذه الحياة، فامنحني الوعي والمعرفة كي أفقه العلل والاسباب الخفية التي تتدفق باتجاهي من كل صوب كي ازيح العقبات عن طريقي مااستطيع، وأؤدي ماتقتضي تأديته. واذا عجزتُ عن فهم العلل المجهولة، فتلطّفْ عليّ واجعل التسليم لمشيئتك نبراساً ينير لي الطريق، كي لا أشعر بفراغ في حياتي.

٢ـ استمداد القوة مما وراء الطبيعة لتلبية الحاجات المادية والمعنوية.

٣ـ إقامة وشائج الاتصال بين الصغير المتناهي في الصغر والكبير المتناهي في الكبر الذي هو نهاية الآمال والاهداف البشرية. وبهذا الاتصال يحدث الانسجام والتنسيق بين العالمين الباطني والخارجي والمادي والمعنوي، ويتضح للمرء المعنى الحقيقي للوجود الانساني.

٤ـ حصول الطمأنينة النفسية عند هبوب عواصف القلق والاضطراب.

٥ـ التزود بالقوة لممارسة الاعمال النافعة المفيدة.

يقول السذّج: بامكاننا ان نتمتع بحياة لذيذة بدون ان تكون لدينا نزعة نحو الدعاء والتضرع او الاتصال باللامتناهي!

نعم، يمكن الدفاع عن «اعتبار اللذائذ الطبيعية هدفاً» بنفس المقدار الذي يمكن فيه الدفاع عن «التذاذ المدمنين بالمخدرات»!

فهؤلاء المدمنون يحلّقون في سماء اللذة حين استخدام هذه المواد، كما انّ اولئك الذين يمتلكون معدات قهر الآخرين، تغمرهم سعادة لا توصف ولذة ما فوقها لذة حينما يستعبدون الغير وينتهكون الحقوق والمبادىء الانسانية!

فهل هذا هو المراد بالحياة اللذيذة؟!

كم هو هدف تافه!

فاذا كان من الضروري ان يعيش الانسان في هذه الارض، واذا اقتضت الضرورة ان لا يكون هذا الانسان مثل الآلة الموسيقية التي ليس بامكانها ان تبعث صوتاً ما لم يحركها الآخرون؛ واذا كان لابد له من «هوية»، فالمنطق يقول وبكل صراحة إنّ عليه أن يتخذ له هدفاً.

واذا كان هناك هدف آخر يقود الحياة الانسانية غير الاستقرار في جاذبية الكمال المطلق، فليس بامكان أية حقيقة ان تكون هدفاً مطلقاً وحقيقياً. واذا كان التعريف التالي للهدف الحياتي الاعلى والحياة المثالية تفسيراً معقولاً لحياتنا العابرة، فلا شك انّ نزعتنا

نحو الله ودعاءنا له، سيشكلان اهم عناصر حياتنا وأعظمها.

الهدف الحياتي الاعلى: «إرواء وإنماء اهداف الحياة العابرة بالحياة التكاملية، وتحقيق الشخصية الانسانية من خلال حركتها نحو الأبدية».

والحياة المثالية: هي الحركة الواعية التي كلما اجتازت شوطاً من اشواط الحياة، تعاظم الشوق والقوة لاجتياز الشوط الآخر. والشخصية الانسانية هي التي تنزعم هذه الحركة النابعة من الازلية؛ وهذا العالم ذو المعنى مَعْبَر لهذه الشخصية التي يشكل الوقوع ضمن مدار جاذبية الكمال المطلق في الابدية هدفها النهائي. وذلك الكمال المطلق الذي يهز نسيم من محبته وجلاله حقائق الوجود العظيم، هو الذي ينير طريق تكامل المادة والمعنى الواسع الحافل بالأحداث.

وبهذه الاهداف التي يتوخاها الدعاء، يتضح لنا مدى الخطأ الفاحش الذي عليه هؤلاء السذّج ومدى بعدهم عن حقيقتهم الانسانية. وقد يقال احياناً إن نظام عالم الوجود من الرسوخ والثبات بحيث لايمكن لأية قوة مهما كانت ان تغيره، فكيف يمكن للدعاء ان يحدث خللاً في هذا النظام المتماسك الرصين؟

هؤلاء يتحدثون عن مثل هذه القضايا وكأنهم يحيطون بكافة اسرار عالم الوجود الذي له نظام مفتوح على عوامل مافوق الطبيعة بدءاً بالبنية التحتية وانتهاء بالبنية الفوقية، بل قد تكون تصريحاتهم من القوة والحزم وكأنهم قد شيدوا العالم بأيديهم!! فهل عالم الوجود قطعة حجر جامدة خالية من الروح كي نبرهن على ان العالم الثابت لا يمكن ان يتحرك خلافاً لقانونه؟!

فالعالم ليس حجر صوان حتى لا يؤثر «زفيرنا البارد في حديدته الحارة». كما

أَن عالم الظهور ورغم نظامه المغلق، لديه انفتاح على ماوراء الطبيعة[١].

ففي كل لحظة ينهمر الفيض الالهي على عالم الوجود ويحافظ عليه. ويؤمن كافة بناة الاديان الالهية والاختصاصيون في العلم والفلسفة، مثل نيوتن واينشتاين وأمثالهما من النوابغ الذين هم في تماس مباشر مع الطبيعة أنّ اللحظة السابقة للكائنات الطبيعية غير كفيلة باللحظة اللاحقة، بل وتأخذ الموجودات في كل لحظة حالة جديدة، انّ ذرات عالم الوجود وفيضه في حالة انهمار مستمر من سماءالحكمة والمشيئة الربانية. وهذا قانون ثابت ومستمر. وليس هناك شك ان الحركة وظهور الظواهر في كل لحظة، هما ترجمة حقيقية للنظام المهيمن على منظومة الوجود. كما ان تجدد الظواهر في كل لحظة يؤدي الى ظهور نظام جديد قد يكون مشابهاً او مغايراً للنظام السابق. فنحن بدعائنا اذاً نعمل على ظهور عامل جديد في منظومة الوجود مثل سائر العوامل الطبيعية الأُخرى.

وليس الدعاء فقط بامكانه ان يترك تأثيراً طبيعياً على عالم التكوين والزوال، بل بامكان اي نشاط آخر من نشاطاتنا النفسية ان يترك تأثيراً كمياً ونوعياً ايضاً بما يتناسب مع حجمه. فنشاطنا النفسي يستمد عند الدعاء الصحيح قوة استثنائية من عالم ما وراء الطبيعة تساهم في صناعة نظام جديد لا تُلاحَظ فيه ادنى معارضة لتيار الوجود. فهل

١ـ ماهي علامة وجود عالم آخر؟
تجدد الاحوال وذَهاب كل قديم
يوم جديد وليل جديد وبستان جديد وفخ جديد
وفكرة جديدة وفرحة جديدة وعناء جديدفي كل لحظة
العالم كماء النهر يبدو واقفاً
لكنه يسير ويتجدد، فمن اين يتجدد؟
من اين يأتي الجديد واين يذهب القديم؟
فلابد ان خلف هذه النظرة عالماً لامحدوداً «ديوان شمس، مولوي»

حينما أُغيّر مواضع الاجسام او أُجري عليها سائر التغييرات الكيمياوية، اكون قد قمت بعمل يتعارض مع نظام عالم الوجود؟ طبعاً لا. صحيح إنّ كل تغيير يطرأ على عـالم الوجود يعد خلافاً للترتيب السابق، لكنه ليس مخلاً بأي حال من الاحوال بـالنظام الحقيقي.

قد يقال: فما معنى الدعاء اذا كان الله تعالى عالماً بكافة الجزئيات والكليات ومطلع على ما ظهر وما خفي؟

وهذا التساؤل يدل على السذاجة ايضاً! فقد قلنا إنّ لدينا ارادة وبامكاننا احداث تغييرات في مواد عالم الطبيعة وصوره. فهل يمكن ان نقول: بما ان الله عليم بكل شيء، فلماذا لا يسمح للتغييرات الجارية في الطبيعة لصالحنا، أنْ تجري بشكل عفوي وذاتي؟ فلماذا لا يُخرج القمح دون ان نزرعه ويصنع الجهاز او الماكنة الفلانية دون ان نتدخل في صنعها؟! وهذا يبرهن على ان كل التغييرات التي تجري لصالح الانسان او لدفع الضرر عنه، بحاجة الى إرادة وعمل وجهد، وعلم الله لايدفعني للكف عن العمل او الخلود الى السكون، بل إنّ عليّ السعي وبذل الجهود المادية والنفسية.

وعلى صعيد آخر عليّ أنْ أعلم أنّ بعض الادعية لاتؤدي الى إحداث تغيير في نظام عالم الوجود، وأنّ هناك نوعاً منها يؤثر على طبيعة الاتصال بالعالم الخارجي. فبعض افراد الفئة المتكاملة من الناس تتخذ من الدعاء وسيلة للاتصال بالله سبحانه، بل ولا تفكر حتى في الفوز او الشقاء الأخروي، مثلما نلاحظ ذلك عند سيد الموحدين الامام علي بن ابي طالب عليه السلام الذي قال: «الهي ماعبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك». وفي مثل هذا النوع السامي من الادعية يقف الانسان على مالا نهايته، اي على مالا نهاية مالديه من استعداد ونشاط نفسي، ويشعر بأجمل لحظات وجوده من خلال الاتصال باللامتناهي. ومن هذا ندرك ان بعض الادعية التي لا تُستَجاب لايمكن ان تكون دليلاً على عبث الدعاء. فيجب أنْ نفهم ـ اضافة الى ما سبق ـ

أنّ التواضع بين يدي الله تعالىٰ والتضرع اليه واستمداد العون منه، يعدّ نوعاً من الكمال في ظل تلك الحالة النفسية التي تقود الانسان نحو اللانهاية. ويروي جلال الديـن الرومـي حكاية حول عدم استجابة بعض الادعية مفادها ان شخصاً أقبل على الدعاء مدة مـن الزمن، ثم ادار ظهره له، بعد عدم الاستجابة له، فرأى سيدنا الخضر عليه السلام في المنام، فدار بينهما الحوار التالي:

قال الخضر: لماذا قطعت الذكر؟
ولماذا انت نادم على الدعاء؟
قال: لم تصل منه كلمة «لبيك»
وأخشى ان يكون قد أوصد الباب
قال الخضر: ان الله قال لي
إِذهبْ وقلْ له ايها الممتحَن
إنّ «الله» منك، هي «لبيك» منا
وحاجتك وألمك وحرقتك، جوابنا اليك
مَنْ غيري جاء بك الى هنا؟
ومَن غيري جعلك تدعو؟
ووسائلك وبحثك عن الحلول
كانت رسالة مفتوحة منا اليك
ولوعة عشقك، مصيدة لطفنا
وتحت كل «يارب» الكثير من «لبيك»

وانبرى احد اصحاب الرأي لتعريف الدعاء بمعناه العام قائلاً: لمن يؤدّون الصلاة؟ لله. ما معنى الصلاة لله؟ فهل يوجد خارجنا أحدٌ غير متناهٍ؟ وهل غير المتناهي هذا ثابت لا يزول؟ نعم، ولأنه لا يتناهىٰ، فالضرورة جزء من ذاته. ولو لم يكن قد شمل المادة لاقتصر على ذلك الحد فحسب، ولأنه لا يتناهىٰ، فبالضرورة ان يكون ذا شعور. ولو كان قد فقد

الشعور لانتهى عند ذلك الحد، في حين ليس بامكاننا ان ننسب إلى أنفسنا شيئاً غير تصور الموجودية. فهل هذا اللامتناهي يخلق لدينا تصور الجوهر والذات؟ بعبارة اخرى، أليس هو الوجود المطلق الذي نرتبط به؟ فعندما يوجد لامتناهٍ خارجنا، فكيف لايوجد لامتناهٍ آخر في انفسنا؟ وهذان اللامتناهيان! أليس احدهما فوق الآخر؟ أليس اللامتناهي الثاني مادون اللامتناهي الاول؟ أليس مرآته وشعاعه وانعاكسه، ولجّة ذات مركز مشترك مع لجة أخرىٰ؟ وهل هذا اللامتناهي الثاني ذو شعور ايضاً؟ هل يفكر؟ هل يحب؟ واذا كان اللامتناهيان كلاهما ذوي شعور، فلابد أن يكون لكل منهما «مبدأ» يطلبانه، مع وجود «انا» واحدة في اللامتناهي الأعلىٰ و «انا»اخرى في اللامتناهي الأسفل،حيث«انا»السفلىهي الروحو «انا» العليا هي الله.

ونقرأ في الصفحة ٦٧٢ من كتاب «البؤساء» لفكتور هوغو، الطبعة التاسعة:

«الصلاة هي الصلة بين اللامتناهي الاسفل واللامتناهي الاعلى بواسطة قوة الفكر».

ثم يخاطب هوغو بعد هذه العبارة اصحاب المدرسة الرمزية قائلاً:

«لانقتطع شيئاً من الروح الانسانية، فالاقتطاع أمر مشين، بل يجب الاصلاح وتغيير الشكل».

نعم يجب ان لانقتطع من الروح الانسانية حس نزعتها نحو الله. فلو سعينا لاصلاح هذا الحس وطبيعةاستثماره،لقطعناخطوةإيجابيةعلىطريق تبيان الهدف.

الكلام السلبي سهل للغاية، وإثارة شكوك الناس العاديين حول الحقائق لايحتاج الى جهود فكرية كبيرة، وإنما تكمن عظمة شخصية الرجل المفكر في تعلمه. عليه ان يتعلم العلم والفلسفة وان لايقنع بمعرفته النسبية في الأمور، وان لا يداخله السرور من التبجح على الناس ـ الذين يجهلون العلم والفلسفة والعرفان ـ بشهرته التافهة في الكتب والمجلات. علينا ان نسعى لتحديد هدف للحياة الانسانية، ولابد لنا جميعاً من بذل الجهود للبرهنة على وجود هدف أعلىٰ لتلك الحياة.

فالتاريخ الانساني الطويل، والوضع النفسي لبني الانسان، لايوافقان على إلغاء نزعة الدعاء الى الله والتضرع بين يديه. فقد أدرك الناس بجميع طبقاتهم وفئاتهم أنْ ليس بامكان الطعام والنوم والشهوة العابرة، أن تروي غليل النفس نحو الكمال والهدف الأعلىٰ.

يقول «مايزر» في رسالته الى احد اصدقائه:

«انا في غاية السرور لاستفسارك عن رأيي في الدعاء، لأن رأيي في هذا الموضوع راسخ لايسري إليه الشك. فعلينا ان نرىٰ اولاً ماهي الحقائق في هذا الشأن! فنحن محاطون بعالم معنوي علىٰ صلة وثيقة بالعالم المادي. وتفيض عن العالم الأول ـ اي المعنوي ـ قوة تعمل على حفظ العالم الثاني ـ اي عالم المادة ـ وهي نفس القوة التي تحافظ على حياة أرواحنا. وتنشأ هذه المعنويات عن سريان تيارات لاتنقطع من هذه القوة إلينا. وشدة هذه التيارات المعنوية متغيرة باستمرار على غرار تغير القوة الغذائية والمادية في أجسامنا».

اما وليم جيمز فيقول في كتاب «الدين والروح» في موضوع: [انواع من التجارب الدينية] ص ١٥٧:

«رغم أنني لا اوافق علىٰ رأي المسيحيين العاديين، ولا أتفق مع الألوهية التي يدافع عنها علماء المدرسة السكولاستية في القرون الوسطى، غير انني أعدّ نفسي احد فلاسفة ماوراء الطبيعة المتّسمين بالخشونة، وأعتقد بحصول قوة جديدة ووقوع حوادث جديدة ناجمة عن الاتصال بعالم الغيب. وأرىٰ أنّ الفلاسفة المتّسمين بالرقة يستسلمون بسهولة لايعازات الطبيعة. وهذه الفلسفة تأخذ بالأمور الطبيعية دون مناقشة ودون دراسة قيمها».

ويقول المؤلف في كتابه نفسه في الصفحة ٢٠٤:

«يشعر المرء في تلك الحالة بنفوذ قوة الى جسمه، بالضبط مثل شعورنا بحرارة

الشمس عند جلوسنا تحتها. ويمكن استخدام هـذه القـوة بشكـل مـؤثر، تـماماً مـثل استخدامنا للعدسة المكبرة عند تسليط اشعة الشمس على قطعة خشب لإحراقها».

وأفاض الله علينا فضله فأوصلنا الى عرفات. هنا عرفات، آخر ساعات يوم عرفات، تمتد بقعة من الارض تدعى «صحراء عرفات» في مواجهة مليارات المجرات والكواكب التي لاتعد ولاتحصى، وتنشر الشمس آخر اشعتها على الجـبال والتـلال والمـرتفعات وبيداء عرفات الحارقة.

وفي مثل هذه الاجواء تتصاعد الأصوات والتأوهات الى اقصى الأَجرام والآفـاق، وتلتقط عدسة المصباح السحري للطبيعة صوراً لمختلف السحنات والطـلعات، حـيث القلوب تخفق والأيدي ممتدة نحو السماء.

ويرفع البعض جباههم عن التراب وحبّات لؤلؤية تتدحرج من بحر أنـفسهم عـلىٰ وجناتهم، في حين يركع البعض الآخر على الارض وفي قلوبهم أشعة إلٰهية وبين شفاههم كلمة «يارب»، بينما هناك فئة اخرى ذاتُ لباس تَرِبٍ وشعر متناثر وعيون غائرة تشع منها أشعة ربانية.

صحراء عرفات هي أشبه بمرصد كبير منصوب باتجاه اللامـتناهي، الذي يـرصده الدعاة المتضرعون الفزعون من خلال مختلف العدسات.

وفي نقطة من تلك الصحراء الملكوتية، وعند سفح الجبل، وقف شخص يدعو، قلبه في الملكوت ويداه نحو السماء، وعينه في الآفاق اللامتناهية، تنفرج شفتاه احياناً عن ابتسامة الابتهاج، وتغرورق عيناه احياناً اخرى بدموع الشوق.

وضع كل العالم في جهة واحدة، او بتعبير آخر بسط كافة عالم الوجود امام نـاظره وقلبه كوحدة واحدة، وأوصل بقلبه النقي الطاهر بين اللامحدود الاسفل واللامـحدود الأعلىٰ.

فمن هو هذا الشخص؟

انه ابن علي بن ابي طالب عليه السلام قائل العبارة التالية:

«ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وقبله وبعده وفيه».

انه الحسين بن علي عليه السلام، سالك طريق الحق والحقيقة والعاشق الحقيقي لوجـه الله ورضوانه، ورائد قافلة شهداء المبادىء الانسانية والقيم السامية لعالم الوجود.

انه يكشف للبشرية في هذا الدعاء عن طرق الاتصال بالاشعة الملكوتية ضمن دائرة العلاقة الرباعية: علاقة الانسان بنفسه، وبالله، وبعالم الوجود، وبالنوع الانساني. كما انه ينال السمو والوصال في هذا الدعاء الرائع من عـالم الربـوبية العـلوي، ويـمنحه لهـذه الكائنات التي بامكانها -رغم ارضيتها- ان تكون على تماس مع العالم المنزه عن المادة والماديات. فضلاً عن انه يقدم من خلال هذا الدعاء العلاقة الاكثر منطقية وحقيقية بين الانسان وربّه الرحيم.

نعم انّ هذا المتضرع المبتهل **هو الحسين بن علي** عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

اورد المرحوم المحدث القمي في (مفاتيح الجنان): روىٰ بشر وبشير ابنا غالب الاسدي قالا: كنا مع الحسين بن علي عليهما السلام عشية عرفة، فخرج عليه السلام من فسطاطه متذللاً خاشعاً فجعل يمشي هوناً هوناً حتى وقف هو وجماعة من اهل بيته وولده ومواليه في ميسرة الجبل مستقبلاً البيت، ثم رفع يديه تلقاء وجهه كاستطعام المسكين، ثم قال:

(ورغم ان بعض فضلاء المحدثين لم يطمئن الى سند هذا الدعاء، لكن ـ وطبقاً للمبدأ المعروف القائل «دلالته تغني عن السند» ـ فقد يكون مفهوم الحديث ومحتواه احياناً عظيماً ومنطبقاً مع الاصول الى درجة الاستغناء عن السند. ومن البديهي ان مضامين هذا الدعاء التي تتسم بأعلى درجات الحكمة والعرفان الاسلامي، لايمكن ان ينطق بها احد غير الانبياء العظام والائمة المعصومين).

١ـ ألْحَمْدُ للهِ الَّذي لَيْسَ لِقَضائِهِ دافِعٌ وَلا لِعَطائِهِ مانِعٌ

أية قدرة تلك التي بامكانها ان تستعرض وجودها امام القضاء الإلٰهي في حين انها ليست سوى جزء من هذا القضاء؟ وأية ارادة بإمكانها أن تكشف عن نفسها أمام إرادة الله،

في حين أنّ وجودها من نتائج ارادة الله؟[١]

٢ـ وَلا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صانِعٍ

كيف يمكن ايجاد مايشابه صنع الله المبدع، في حين ليس بمقدور أي صانع أن يصنع ذرة من العدم، او يعلم بكافة امكانات أجزاء صنعه واستعداداتها وماهياتها، أو لديه قوة استخدامها جميعاً؟!

٣ـ وَهُوَ الْجَوادُ الْواسِعُ

اللهم ارزقنا نعمة الاعتراف بالنعمة، ثم اشملنا برحمة ربوبيتك الواسعة، وامنحنا تلك البصيرة التي يمكن ان ندرك بها ارتباط كل نعمة بكافة أجزاء عالم الوجود في السر وفي العلن، ونتذوق طعم التقلب في نعم الوجود، ونستوعب في أعماق نفوسنا معنى «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَتُحْصُوهَا»[٢].

٤ـ فَطَرَ أَجْناسَ الْبَدائِعِ وَأَتْقَنَ بِحِكْمَتِهِ الصَّنائِعَ

ماأسهل إدراك الإبداع من قبل ذلك المرء الذي نجح في مشاهدة باطنه ومطالعته، وفَهِم أنّ انعكاس أية ظاهرة وعمل دماغي ونفسي ليس استمراراً لظاهرة وعمل سابق في باطن الانسان، وإنما هو حقيقة جديدة شبيهة بالإبداع غير معلولة لعلّة مادية سابقة، وليست بحاجة سوىٰ إلى الفاعل والمحفّز. وبامكان الانسان العاقل أنْ يشاهد ـخلال

١ـاتصال كافة اجزاء وشؤون عالم الوجود فيما بينها، حقيقة علمية وملموسة تجلت بشكل رائع على صعيد الحكمة والعرفان، مثلما قال الشيخ محمود الشبستري:

لو انتزعت ذرة من موضعها
لسرى الخلل الى كافة انحاء الكون

٢ـابراهيم، الآية ٣٤.

نظر دقيق وواعٍ ـ أروع الانظمة والنوعيات المتقنة في عالم الخلقة.

ونظام عالم الوجود وتقنينه. هما اللذان أوجدا كافة انواع العلوم والفلسفات بواسطة عقول المفكرين. وأضفيا الجلال والروعة والعظمة على هذا المعرض الكبير.

ولم سمح مايُمارَس من أعمال لتنظيم ضروريات الحيات. وأمضى المرء كافة حياته في مشاهدة روعة هذا الكون وعظمته. لما شعر هذا المرء بالتكرار او الاشباع. وقد قيل:

«يوجد في العالم مشهد عظيم يُدعى البحر. وهناك مشهد أعظم منه هو السماء الزرقاء. ويوجد مشهد أعظم من السماء هو الضمير الانساني»[1].

ويجب اضافة العبارة التالية: ولو جرت تلك المشاهدة بتضافر كافة القوى الفكرية والنفسية. لاستمرت إلى الأبد.

٥ـ لاتَخْفى عَلَيْهِ الطَّلائِعُ وَلاتَضيعُ عِنْدَهُ الْوَدائِعُ

فعالم الخلق الذي يعتمد على القدرة والعلم والاختيار الإلٰهي، ليس فيه ما يخفىٰ على الله. ورغم ما يُفترض من وجود حجاب يحجب بعض الأشياء. إلا أن الله تعالى هو الذي خلق هذا الحجاب وهو على علم به. فهو يحيط بكافة الاشياء ومشرف على كافة الذرات والاتصالات القائمة بين المخلوقات. أليس هو خالق الوجود بأسره، وبيده مصير كافة الكائنات؟!

فالأمانات مهما كانت. لاتضيع عنده ولاتفسد. لانه ليس جاهلاً بحقيقتها وقيمتها. ولا محتاجاً إليها. ولاتوجد هناك قوى اخرى غيره قادرة على انتزاعها منه.

٦ـ جازي كُلِّ صانِعٍ وَرائِشُ كُلِّ قانِعٍ وَراحِمُ كُلِّ ضارِعٍ

حكمة الله البالغة في نظامٍ الوجود هي أن لايظَلّ اي عمل بدون جزاءٍ، وأية مقدمة

---

١ ـ فكتور هوغو.

بدون نتيجة. وهذا هو المبدأ الاساس الذي أعلنته الكتب السماوية كافة، واعترفت العقول كافة ومختلف الثقافات الرائدة للامم الواعية بسريانه في نظام الوجود. فالله هو الذي ينقذ القُنَّع من براثن الفقر وسوء المعيشة، ويسبغ رحمته ونعماءه على المبتهلين المتضرعين.

٧ـ وَمُنْزِلُ الْمَنافِعِ وَالْكِتابِ الْجامِعِ بِالنُّورِ السّاطِعِ

هو الذي خلق كل ما ينفع الناس ومايفيدهم، وهو الذي انزل القرآن المجيد لهداية الناس وأخرجهم من ظلمات الجهل والشقاء إلىٰ أنوار الهداية. فالقرآن حدد آلام البشرية وشخّصها ووضع العلاج اللازم لها، وأنار طريق النضج والكمال، ولهذا فهو المنقذ للناس من سجون المادة والماديات وهو المحلق بهم في آفاق عالم الملكوت، والموقظ لكل من يطلب اليقظة.

٨ـ وَهُوَ لِلدَّعَواتِ سامِعٌ وَلِلْكُرُباتِ دافِعٌ وَلِلدَّرَجاتِ رافِعٌ وَلِلْجَبابِرَةِ قامِعٌ

فالله الذي يسمع أمواج الأدعية الخفية، كيف لايسمع بحر الباطن اذا ماج، وانطلقت أمواجه من الأفواه باتجاه الأبواب الإلٰهية.

إلٰهي:

إلٰهي أنت تعلم سرّ القلب الكنين

وتقرأ الرسالة التي لم تُكْتَب «نظامي الكنجوي»

إلٰهي! تصعد اليك التمتمات الخافتة المنبعثة من حناجر سكان أعمق وديان هذه الارض، كصعود هتافات الرابضين على أعلى قمم الكون الكبير.

ربّاه! أنت الدافع للبلايا والنكبات، والملهم للصبر والتحمل عند هجوم أقسى

الويلات والمشاق.

مولاي! يارافع درجات طلاب طريق الحق والحقيقة
يا مكحّل اصحاب البصيرة
يا فاتح باب الجليسين في أنفسهم
يا من كفاني بالعقل
التفحّص مني والهداية منك «نظامي الكنجوي»

ساعدنا بقدرتك نحن العاجزين المتشبثين بالمادة والماديات، وأعنّا على السير نحو الهدف الأعلىٰ للحياة. يارب، يا واحد، يا قهار، استأصل وجود الجبابرة والطواغيت من على وجه الارض. فأنت تعلم اي حجب يلقيها ظلم هؤلاء الاشرار الزنادقة وعدوانهم على المبادىء والقيم الانسانية العليا، فيحرمون الناس من التنعم بهذه النعم الالهية التي تقودهم نحو التكامل. فالجائرون هم الذين يسوّدون صفحات التأريخ ثم يحملون بعد ذلك على أكتافهم أوسمة البطولة! وتتوالى الأيام والاشهر والاعوام والقرون وتزحف نحو الماضي، في حين تظل رائحة الأجساد المتراكمة والدماء المراقة في ميادين الحرب، بل وحتى في الأزقة والمنعطفات والكهوف التي احتمى بها المستضعفون، تزكم أنوف ملائكتك وعبادك المتقين، وتحوّل وجه الحياة المشرق الى عتمة كالحة.

إلٰهي! أنقذِ الأرواح الملوثة لهؤلاء المرضى الانانيين من الهوة التي سقطت فيها ـ ما اقتضت حكمتك الربانية ـ بعطفك ورحمتك الواسعة التي نشرتها على كافة الوجود، وأحْرِقْ بنار فراقك اولئك الذين سقطوا نهائياً في هوة الهلاك ففقدت أنفسهم حلاوة الحنان والرحمة والحب، وامتلأت حقداً وعداءً على بني الانسان.

ايها المنتقم الحقيقي، وأيها العادل المطلق، وأيها القاضي الذي لا يخفىٰ عليه ظلم الظالمين وعدوان المعتدين، إثأر للمظلومين المستضعفين من المستبدين السفاحين، واسكب من بحر رحمتك الغيث على قلوب المعذَّبين التي أَضرم الظالمون فيها النار،

وداعبْ بنسيم حنان ربوبيتك أرواح هؤلاء المحرومين.

٩ـ فَلا إلهَ غَيْرُهُ وَلا شَيْءَ يَعْدِلُهُ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ اللَّطيفُ الْخَبيرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ

رباه! حينما تنظر عيوننا الى كل شيء وفي كل مكان، وحينما نطالع كل حقيقة تبدو لدينا منسجمة مع مبادىء الوجود، نجد في ذلك الشيء وتلك الحقيقة من الاتّساق ما يؤكد على وحدة الصانع ووحدة حكمته وإرادته. ولهذا نقول:

كلُّ نبات ينبت في الارض
يلهج: وحده لاشريك له

وهذا الشعور لايقوم على خواء، وإنما هو على صلة بالشهود المباشرة لوحدة فعل الوجود وفاعله، والذي لايمكن القبول بدونه بأية رؤية للكون واي مذهب فلسفي منظم. كما ان افتراض وجود رب آخر يعني أنّ كلاً منهما سيحدد الآخر، ومن البديهي أنّ التحديد لاينسجم مع الإطلاق واللاتناهي اللذين هما من صفات الله الذاتية.

ومع اتصاف الله تعالىٰ بالقدرة والعلم اللامتناهيين، فلن يخرج اي شيء عن دائرة العلم الإلٰهي، وإنّ أيّ تصور آخر خلاف ذلك يستلزم تصور نفي الربوبية، وهذا مالا ينسجم ابداً مع حكم العقل ولا مع الإدراك السليم.

١٠ـ أللّٰهُمَّ إنّي أرْغَبُ إلَيْكَ وَأشْهَدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَكَ مُقِرًّا بِأنَّكَ رَبّي وَإلَيْكَ مَرَدّي

إنّ من لايشعر بالشوق إلىٰ لقائك، لايمكنه الانتفاع بوجوده. وذلك الذي لاينزع نحو بابك، فليس بمقدور أية حقيقة أن تجذبه اليها.

الروح ليس لديها ميل الى العالم، بدون جمال الحبيب
ومن ليس لديه هذا، ليس لديه ذاك «حافظ»

***

اذا لم تهبه القلب فمن سيهبك الطمأنينة؟
ولو لم تختر حزنه، فأي حزن تختار؟
ألقِ نظرة خفيّة علّك تراه جهراً
ولو لم تره في الكون، فماذا ترى؟ «ملا محسن فيض الكاشاني»

إني أشهد من أعماق قلبي أنّ الله واحد غني مطلق، وتشهد معي في ذلك كافة مشاعري ومداركي. وأقرّ بدوام فيضك ايها الفياض المطلق، لأني اعلم ان انقطاع فيضك الربوبي ـ ولو للحظة واحدة ـ سيضع عالم الوجود بين أذرع العدم، بحيث لاتبقى ولو ذرة واحدة منه في شاشة الوجود، فكيف بكائن فقير وعاجز مثلي لو تحرقه لفحة من نار قهرك وغضبك، فهل تقوم له بعدها قائمة؟

الإياب النهائي لابد وان يكون اليك، ولابد ان يُفتح بين يديك ملفّ المصير النهائي لكافة الناس.

فالحركة القانونية لحياتنا تجري وفق مبدأ «انا لله وانا اليه راجعون»، ولهذا فالذي بدأ من الاعلى لايمكن ان ينتهي في الاسفل.

١١ـ إبْتَدَأْتَني بِنِعْمَتِكَ قَبْلَ أنْ أكُونَ شَيْئاً مَذْكوراً وَخَلَقْتَني مِنَ التُّرابِ ثُمَّ أسْكَنْتَني الأصْلابَ آمِنًا لِرَيْبِ الْمَنُونِ وَاخْتِلافِ الدُّهُورِ وَالسِّنينَ فَلَمْ أزَلْ ظاعِنًا مِنْ صُلْبٍ إلى رَحِمٍ في تَقادُمٍ مِنَ الأيّامِ الْماضِيَةِ وَالْقُرونِ الْخالِيَةِ

كلما كانت النعمة واسعة وأبعد من دائرة اختيار الناس، كانت عظمتها وقيمتها اكثر خفاءً. فلا يكاد يهتم اغلب الناس بنعمة الهواء للتنفس، ونعمة نور الشمس لكائنات الكرة الارضية على مختلف الأصعدة، في حين أنّ هذه النعم، من اهم عوامل بقاء الانسان وباقي الكائنات الحية والنباتات.

نعم، فأنت لاتشعر بقيمة الماء مادمت الى جانب الفرات

«سعدي»

ياحبذا لو كان الناس يدركون العدم قبل دخولهم إقليم الوجود، لأن ذلك يساعدهم على ادراك معنى الوجود ونعمته، ولهذا:

عند الفقر، انطلق في اللهو والسكر
فاكسير الوجود هذا يجعل الشحاذ قاروناً[١] «حافظ»

لماذا يبهم معنى الوجود ونعمته على اولئك الذين لايعون ولايفقهون؟ لأنهم يمضون حياتهم متسكعين في قارعة الكسل، ولا يعيرون اهمية للسعي والمثابرة، والحياة عندهم ليست اكثر من قدح عصير منعش يكرعونه. انهم ليسوا سوى اناس جعلوا من أنفسهم محوراً للقيم واللاقيم، وأخلّوا بنعمة الوجود نظراً لاتخاذهم انفسهم هدفاً والآخرين وسيلة، ولهذا لن يفلحوا ابداً في استيعاب عظمة هذه النعمة الإلٰهية. وحبذا لو عاد هؤلاء البؤساء الى انفسهم ـ ولو للحظات ـ وعاشوا في غمرة الحياة المعقولة النابعة عن الوجود الحقيقي بدلاً من الحياة الخيالية التي لا اساس لها.

فما العمل وأغلبنا نحن الناس نضحي بالحياة في سبيل وسائل الحياة؟ فنحن نهرول

---

١ ـ لا يريد به اللهو والسكر المتعارف، وانما للعرفاء لغتهم الخاصة ومفرداتهم التي لها دلالات غير الدلالات التي اعتاد الناس عليها. [المعرّب]

خلف فقاعات سراب الحياة الحيوانية القلقة ونحرم أنفسنا من تذوق نعمة الوجود بدلاً من الارتواء من منهل الحياة الحقيقي!

نعم، ايها الاعزاء، يصدق علينا نحن ضحايا وسائل الحياة البيتان التاليان:

الدنيا ما أسوأها من فقاعة
ليست فقاعة ماء وإنما فقاعة سراب
وأي سراب! سرابٌ في المنام
وأي منام! منام ثمل منهار «منسوب الى بينوا بدخشاني»

تعالو للحظات نطهّر العقول والقلوب والأرواح من أوهام التظاهر بالعلم ورغبات الحياة الحيوانية وميولها، بل ونزيح حتى الـ «أنا» من أمام ابصارنا كي نشاهد عالم الوجود بالوحدة الرائعة التي هو عليها. وفي هذه اللحظات بالذات سيجذبنا جمال وجودنا وعظمته وروعته بجاذبيته الملكوتية، فتتحرك أرواحنا في ذروة الاهتياج استعداداً للانطلاق من قفص الجسم. لماذا؟ لأن الوجود قد أزاح النقاب عن وجهه وسمح لنا بمشاهدة طلعته للحظات.

ولابد أن نشعر حينئذ بلطف الأبدية وعظمتها، لو أدركنا في ظل تلك الحالة أننا نقطة جميلة ذات معنى كبير في هذا الوجود العظيم الرائع.

١٢ـ لَمْ تُخْرِجْني لِرَأْفَتِكَ بي وَلُطْفِكَ لي وَإِحْسانِكَ إِلَيَّ في دَوْلَةِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ الَّذينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ لكِنَّكَ أَخْرَجْتَني لِلَّذي سَبَقَ لي مِنَ الْـهُدَى الَّذي لَهُ يَسَّرْتَني وَفيهِ أَنْشَأْتَني

مولاي! وهل بامكاني أن أشكر نعماءك عليّ، وأنت تقلّبني في نعمة الايمان منذ بدء وجودي في هذه الدنيا؟ فخلال تلك الفترة، كان بإمكان مئات الألوف من الناس أن

يتمتعوا غاية التمتع بطلوع شمس الاسلام ببعثة محمد المصطفى ﷺ والمساهمة في الدين التكاملي الذي اختاره الله لهم.

ومع أنّ الولادة في ذلك العصر المبارك ظاهرة قانونية تتصل بنظام الخلق، لكنها لما كانت من وجهة نظر الحسين بن علي عليه السلام جزءاً من ألطاف الله وتوفيقاته للحركة في طريق التكامل القويم، فلابد من تقديم الشكر لله تعالى على ذلك.

ومن الطبيعي أن هذا الامتياز التكويني ـ ومثل باقي الامتيازات التي سنلاحظها في العبارات التالية ـ لا يقسر المرء على أداء التكاليف وإيفاء الحقوق. ويشهد التاريخ أنّ أبا الاحرار ورائد قافلة شهداء طريق المبادىء والقيم الانسانية لم ينحرف طوال حياته عن طريق أداء التكاليف وإيفاء الحقوق ولو للحظة واحدة، بل جابه أقسى المصائب والمحن وضحّىٰ بنفسه الشريفة دفاعاً عن المظلومين ودعماً للقيم الانسانية العليا.

١٣ـ وَمِنْ قَبْلِ ذلِكَ رَؤُفْتَ بي بِجَميلِ صُنْعِكَ وَسَوابِغِ نِعَمِكَ فَابْتَدَعْتَ خَلْقي مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى وَأَسْكَنْتَني في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ بَيْنَ لَحْمٍ وَدَمٍ وَجِلْدٍ لَمْ تُشْهِدْني خَلْقي وَلَمْ تَجْعَلْ إِلَيَّ شَيْئاً مِنْ أَمْري

أغلب الناس لا يعدون النعم نعماً إلا إذا جلبت لهم اللذائذ ودفعت عنهم المصائب انطلاقاً من تحديد نظراتهم ودناءة رغباتهم وأهوائهم. وقصر النظر هذا ناجم عن أنّ الناس لايريدون الوقوف على عظمة وجودهم من خلال توسيع أفق نظراتهم والتسامي بأهدافهم وتطلعاتهم. ولو استطاعوا التخلص من هذا المستوى من التفكير الساذج، لاعتبروا كافة الكائنات الموجودة في دائرة الوجود ـ التي ينتسبون اليها والتي لها تأثير على وصولهم الى المكانة التي هم عليها ـ نعماً إلهية وألطافاً ربانية.

فالمرء يفقه معنى اجتياز مرحلة النطفة حينما يدرك الحقيقة التالية:

القطرة الجارية في النهر
تسعـى لأداء عمـل «بروين اعتصامي»

فما بالك بذرات النطفة الانسانية التي تعدّ أولىٰ منازل وجوده. وهو المنزل الذي يُعدّ منطلقاً لحركته التكاملية، تلك الحركة التي تعتمد على قوتي العقل والقلب وتحظى بدعم أنبياء الله وباقي أئمة ماوراء الطبيعة، وتستمر الى ان تستقر في دائرة الجاذبية الإلٰهية.

ايها الحكيم القاضي!

هل يمكن ان نتصور نعمة أعظم من أنك لم تنبئنا بقانون الحياة في هذه الدنـيا، ولم تخيّرنا في قبوله، حينما وهبت نعمة الوجود، وفيض العبودية العظيم، ووجهت العباد في مسار الحركة نحو اعتاب كبريائك، كي لانفزع من صعوبة طريق الحياة ووعـورته ولا نرفض الدخول الى الدنيا [١].

١٤ـ ثُمَّ أخْرَجْتَني لِلَّذي سَبَقَ لي مِنَ الْهُدى إلَى الدُّنْيا تامًّا سَوِيًّا وَحَفِظْتَني في الْمَهْدِ طِفْلاً صَبِيًّا وَرَزَقْتَني مِنَ الْغِذاءِ لَبَنًا مَرِيًّا وَعَطَفْتَ عَلَيَّ قُلوُبَ الْحَواضِنِ وَكَفَّلْتَني الأُمَّهاتِ الرَّواحِمَ وَكَلَأْتَني مِنْ طَوارِقِ الْجانِّ وَسَلَّمْتَني مِنَ الزِّيادَةِ وَالنُّقْصانِ فَتَعالَيْتَ يا رَحيمُ يا رَحْمنُ

تقرر عبوري من مخبإ الأرحام خلال إجراء قانون الوجود. فوضعتُ قدمي في هذا المعبر من أجل الوصول الى بابك الذي هو الهدف الاعلى للحركة في هذه الدنيا. وكما أنّ قانون الخلقة العظيم كان يصنع لبناً سائغاً في محالب أُمي، كان أبي وأُمي يصنعان لي مهداً

---

١ ـ يبدو ان ابن شبل البغدادي كان يجهل هذه الحكمة الالهية العظيمة حينما قال:
لكان وجودنا خـيراً لو أنـا تُـخَيَّرُ قـبله اونُسـتشارُ

كي أغطّ بهدهدته في نوم حالم.

إلٰهي! كيف بمقدوري أن أشكر بسمات ونظرات امي وحواضني اللائي يسقين جذور المشاعر العالية والعواطف والحنان في قلبي، في حين أنّ الشكر ليس سوى وسيلة لتقدير تلك البسمات والنظرات وباقي المظاهر العاطفية التي تُعِدّ قلوبنا وأنفسنا لحياة ذات معنًى، وهذا بحد ذاته نعمة عظيمة.

الهي! لقد عَبَرتُ بحياتي من بين الصخور وطرق عالم الطبيعة الوعرة، ومن بين غابات الحوادث المدمرة والموجودات الضارة، حتى استطعتُ الاستمرار في حياتي بدون ان يطرأ خلل على نظام وجودي.

ايها العادل، كلما نظرتُ الى بدء حياتي وحركتي والتحولات القانونية التي طرأتْ عليها، لا أشاهد سوى آثار عظمة مقامك الربوبي الأعلى وحكمتك الفياضة.

إلٰهي! أريد ان اشكرك على كافة هذه الالطاف والعنايات الربانية، إلا أنّ غباراً من الحياء يطوق نفسي لشعوري بالعجز عن إيفاء حقك من الشكر. ولو جرت كلمة شكر على لساني، فإنها سرعان ماتفتح أجنحتها وتطير أمام خجلي.

١٥ـ حَتّى إذَا اسْتَهْلَلْتُ ناطِقًا بِالْكَلامِ

قد تقفز من فمي الصغير بين فترة واخرى حروف مقطعة فتثير أمواجاً من العواطف والمشاعر النقية المتّصلة بالنغمة الحقيقية للوجود، وتعطّر فضاء عشّي بأريج الجنة. ثم منحتني قدرة دمج الحروف للكشف عن خلجاتي الابتدائية بواسطة الألفاظ، من خلال إفاضة المزيد من القدرة عليّ للتعبير عن رغباتي النفسية. ومنذ هذه المرحلة بالذات بدأت الصلة بيني وبين استعدادتي وضروريات حياتي من جهة، وبيني وبين الطبيعة والناس المحيطين بي من جهة اخرى. وكلما تقدمتْ حياتي، كلما تمتعتُ بتلك النعم التي وهبتها لي لتحريك مالديّ من استعداد، وتلك الالطاف الجمة التي أغدقتها عليّ للانتفاع

بذلك الاستعداد.

١٦ـ أتْمَمْتَ عَلَيَّ سَوابِغَ الإنْعامِ وَرَبَّيْتَني زائِدًا في كُلِّ عامٍ حَتّى إذَا اكْتَمَلَتْ فِطْرَتي وَاعْتَدَلَتْ مِرَّتي أوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأنْ ألْهَمْتَني مَعْرِفَتَكَ وَرَوَّعْتَني بِعَجائِبِ حِكْمَتِكَ وَأيْقَظْتَني لِما ذَرَأتَ في سَمائِكَ وَأرْضِكَ مِنْ بَدائِعِ خَلْقِكَ وَنَبَّهْتَني لِشُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وَأوْجَبْتَ عَلَيَّ طاعَتَكَ وَعِبادَتَكَ وَفَهَّمْتَني ما جاءَتْ بِهِ رُسُلُكَ وَيَسَّرْتَ لي تَقَبُّلَ مَرْضاتِكَ وَمَنَنْتَ عَلَيَّ في جَميعِ ذلِكَ بِعَوْنِكَ وَلُطْفِكَ

إلٰهي العزيز! لقد كتبتَ عليّ الطاعة والعبادة لنيل الهدف الحياتي الأعلى، وأفهمتني كل ماجاء به أنبياؤك لتكاملي، وسهّلت قبول أسباب الرضىٰ. فهل هذا الذكر والشكر والطاعة والعبادة، وحتى هذا الفهم لوجودك وصفاتك الربوبية، من صنع هذه الحفنة من التراب ومادتنا التافهة وطبيعتنا العاجزة؟ كلا والله.

دمدمة هذا الناي من أنفاسه
وهمهمة هذه الروح من همهماته
وكل من رأى الله يعلم
أنّ هذا الصوت، من تلك الاصوات
رباه ان هذا العطاء أعظم مما نستحق
ولطفك لطف خفي يليق بك
خذ بأيدينا وأقبلنا
أزِحْ الحجاب، ولا تخرق سترنا
أنقذنا من هذه النفس الخبيثة

فقد وصل سكينها الى العظم
ومَنْ يكسر القيد القاسي
عنا نحن البؤساء، غيرك؟
ومثل هذا القفل الثقيل
مَنْ يفتحه غير فضلك ياودود؟
اشَحنا عن أنفسنا واتجهنا اليك
لأنك اقرب الينا منا
ورغم هذا القرب، فلازلنا بعيدين عنك
فابعث الضياء في وسط هذه العتمة
وهذا الدعاء من عطائك وتعليمك
وإلاّ فهل ينبت الورد في الظلام؟
وهل هناك شيء غير اكرامك
قد اوجد الفهم والعقل بين هذا اللحم والدم؟
ويسطع من العينين نور
تتصاعد أمواجه نحو السماء
وقطعة اللحم التي تؤلف اللسان
تنبعث منها الحكمة أنهاراً أنهارا
يامَن منه الدعاء ومنه الإجابة
ومنه الأمان ومنه الخوف «مولوي»

١٧ـ ثُمَّ إذْ خَلَقْتَني مِنْ خَيْرِ الثَّرى لَمْ تَرْضَ لي يا إلهي نِعْمَةً دوُنَ أُخْرى وَرَزَقْتَني مِنْ أنْواعِ الْمَعاشِ وَصُنُوفِ الرِّياشِ بِمَنِّكَ الْعَظيمِ الأعْظَمِ عَلَيَّ وَإحْسانِكَ الْقَديمِ إلَيَّ حَتّى إذا أتْمَمْتَ عَلَيَّ جَميعَ النِّعَمِ

وَصَرَفْتَ عَنّي كُلَّ النِّقَمِ لَمْ يَمْنَعْكَ جَهْلي وَجُرْأَتي عَلَيْكَ أَنْ دَلَلْتَني إلى ما يُقَرِّبُني إلَيْكَ وَوَفَّقْتَني لِما يُزْلِفُني لَدَيْكَ فَإنْ دَعَوْتُكَ أَجَبْتَني وَإنْ سَأَلْتُكَ أَعْطَيْتَني وَإنْ أَطَعْتُكَ شَكَرْتَني وَإنْ شَكَرْتُكَ زِدْتَني كُلُّ ذلِكَ إكْمالٌ لِأَنْعُمِكَ عَلَيَّ وَإحْسانِكَ إلَيَّ

ربي الرحيم! إنّ كل هذا الجهل والتجرؤ عليك والذي كان بدافع من جهلي، لم يَحُل دون ذلك الذي يقربني اليك، ولم يقصني عن باب التقرب اليك. بل كلما دعوتك أجبتني،وكلما سألتك أعطيتني، وكلما أطعتك أكرمتني، وكلما شكرتك زدت من كرامتي. وكل هذا نابع من إكمال نعمك وإحسانك الربوبي إليّ.

١٨ـ فَسُبْحانَكَ سُبْحانَكَ مِنْ مُبْدِئٍ مُعيدٍ حَميدٍ مَجيدٍ وَتَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ وَعَظُمَتْ آلاؤُكَ فَأَيُّ نِعَمِكَ يا إلهي أُحْصي عَدَدًا وَذِكْراً أَمْ أَيُّ عَطاياكَ أَقُومُ بِها شُكْراً وَهِيَ يا رَبِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيَهَا الْعادّوُنَ أَوْ يَبْلُغَ عِلْمًا بِهَا الْحافِظوُنَ

ورغم إحاطة النعم والألطاف الالهية بنا من كل صوب ورفولنا فيها، الا اننا يعوزنا الاهتمام بعظمتها وضرورة ارتباطها بأبعادها المادية والمعنوية. ولا يُستبعد منا نحن عبيد الطعام والمنام والغضب والشهوة والطرب والملذات مثل هذه اللاأبالية والتساهل. وليس عجيباً تسامح الالطاف الربانية العليا معنا نحن الذين لا نلمح في دائرتي ملكوت الآفاق والأنفس ولا نتطلع سوى إلى ملذاتنا الحيوانية. فما لم نفقه معنى عالم الوجود العظيم، وحقيقة الجوهرة الانسانية الكنينة في باطننا والتي تعد أعظم ثمار مصنع الوجود الكبير ونتاجاته، فاننا سنظل ـعلى حد تعبير مولوي ـأبقاراً تأكل الحشيش وأفاعي يلسع بعضنا البعض الآخر، حتى لو وُضعتْ كافة الكائنات وأضعافها في أيدينا مع حياة

أبدية، ولن نعرف حينئذ أية نعمة ولن نجعل منها وسيلة لحركتنا التكاملية لأننا نـطلب الحشيش ولسع الآخرين فحسب.

فهيا لنستمع الى كلام فوق كل هذه الضوضاء والجلبة الفوضوية التافهة، انه كلام ربنا جلّ وعلا:

«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً»[١].

ولنستمع ايضاً الى عبد من عبيد الله يقول[٢]:

كم من ذاهب الى الشام والعراق
لم ير سوى الكفر والنفاق
وكم من ذاهب الى الهند وهرات
لم يشاهد سوى البيع والشراء
وكم من ذاهب الى تركستان والصين
لم يشاهد سوى المكر والخداع
فطالب الشيء ايها الصديق الرشيد
لايرى سوى الشيء الذي يطلبه
ومن ليس لديه علامة سوى اللون والرائحة
فقل له ان يفتش جميع البلدان
ولو ظهر البقر في بغداد فجأة
وجاب جميع انحائها

---

١ ـ سورة فرقان، الآية ٤٤.

٢ ـ الشاعر العارف جلال الدين الرومي المعروف بمولوي. [المعرّب]

فلن يشاهد سوى قشر البطيخ
من بين كل جمالاتها ولذائذها
فالتبن او الحشيش الساقط في الطريق
لايُشبع سوى البقر أو الحمير
ومن يَبُسَ على سيخ الطبيعة كالقديد
فقد استسلم للأسباب ولن تتسامىٰ نفسه
وفضاء خرق الاسباب والعلل
هو أرض الله، ايها الصدر الأجل
ولو تغيّرالانسان كل لحظة مثل نقش الروح
لرأىٰ عالماً في كل لحظة
واذا كان فردوساً وأنهار نعيم
فانه يصبح قبيحاً اذا ظل على حالة واحدة

١٩ـ ثُمَّ ما صَرَفْتَ وَدَرَأْتَ عَنّي اللّهُمَّ مِنَ الضُّرِّ وَالضَّرّاءِ أكْثَرُ مِمّا ظَهَرَ لي مِنَ الْعافِيَةِ وَالسَّرّاءِ وَأنَا أشْهَدُ يا إلهي بِحَقيقَةِ ايماني وَعَقْدِ عَزَماتِ يَقيني وَخالِصِ صَريحِ تَوْحيدي وَباطِنِ مَكْنُوْنِ ضَميري وَعَلائِقِ مَجاري نورِ بَصَري وَأساريرِ صَفْحَةِ جَبيني وَخُرْقِ مَسارِبِ نَفْسي وَخَذاريفِ مارِنِ عِرْنيني وَمَسارِبِ سِماخِ سَمْعي وَما ضُمَّتْ وَأطْبَقَتْ عَلَيْهِ شَفَتايَ وَحَرَكاتِ لَفْظِ لِساني وَمَغْرَزِ حَنَكِ فَمي وَفَكّي وَمَنابِتِ أضْراسي وَمَساغِ مَطْعَمي وَمَشْرَبي وَحِمالَةِ أُمِّ رَأْسي وَبَلوعِ فارِغِ حَبائِلِ عُنُقي وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ تامُورُ صَدْري وَحَمائِلِ حَبْلِ

وَتيني وَنِياطِ حِجابِ قَلْبي وَأفْلاذِ حَواشي كَبِدي وَما حَوَتْهُ شَراسيفُ أضْلاعي وَحِقاقُ مَفاصِلي وَقَبْضُ عَوامِلي وَأطْرافُ أنامِلي وَلَحْمي وَدَمي وَشَعْري وَبَشَري وَعَصَبي وَقَصَبي وَعِظامي وَمُخّي وَعُرُوقي وَجَميعُ جَوارِحي وَمَا انْتَسَجَ عَلى ذلِكَ أيّامَ رِضاعي وَما أقَلَّتِ ألأرْضُ مِنّي وَنَوْمي وَيَقْظَتي وَسُكوُني وَحَرَكاتِ رُكُوعي وَسُجُودي أنْ لَوْ حاوَلْتُ وَاجْتَهَدْتُ مَدَى ألأعْصارِ وَالأحْقابِ لَوْ عُمِّرْتُها أنْ أُؤَدِّيَ شُكْرَ واحِدَةٍ مِنْ أنْعُمِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ذلِكَ

ان كلمات الامام الحسين عليه السلام هذه، قريبة جداً من روح ذلك الذي يدرك نعمة الوجود العظمى. فمثل هذا الشخص بإمكانه ان يفهم ما عبّر عنه حافظ:

عند الفقر، انطلق في اللهو والسكر
فإكسير الوجود هذا يجعل الشحاذ قاروناً

واذا ما استشعر مثل هذا الشخص نعمة الوجود وأدرك «ماهو مبتدأ هذا الخبر»، ووعىٰ أنه يتحرك في المتن الطبيعي للملكوت الإلٰهي، فلا بد ان يكون كل نَفَس يتنفسه في الحياة، هدية يبعثها الى الأبدية.

هذا النَفَس لازال يسرق أرواحنا
قليلاً قليلاً من سجن الحياة
تا [مادام] إليهِ يَصْعَدْ أطيابُ الكَلِمْ
صاعداً مِنّا الى حيثُ عَلِمْ
ترتقي أنفاسنا بالإرتقاء
مُتْحَفاً مِنّا اِلى دارِ البقاء

ثـــــــم يُـــلجينا الى أمـــــثالها
كـــــي يــــنالَ العــبدُ مــما نــالها
ثـــــم يأتــــينا مُكـــــافاةُ المــقال
ضِــعْفَ ذلك رحــمةً مـن ذي الجــلال

ونقول بالفارسية: ان مصدر هذا الذوق
ذلك الذي يمتلك الجاذبية

وألقى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ خطبة في الناس في آخر جمعة مـن شـهر شعبان جاء فيها:

«ايها الناس قد أقبل عليكم شهر الله بالرحمة والبركة. أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة... »

والسبب الذي يدفع العبد للشهادة بعجز جوارحه وقواه الروحية كافة عن أداء شكر نعمة واحدة من نعم الله حتى لو عاش مدى الأحقاب والدهور، هو تلك الصلة التي تنشأ بينه وبين الله تعالىٰ من خلال معايشته لأجواء تلك النعم النابعة من الفيض الإلهي مهما كانت تلك النعم صغيرة، مما يؤدي الى اتساع إنيّته الى ماوراء الابدية وحظوته بلقاء الله. فهل بالإمكان أداء شكر الولوج الى جاذبية الجلال والجمال الإلهي؟

٢٠ـ إلّا بِمَنِّكَ الْموُجَبِ عَلَيَّ بِهِ شُكْرَكَ أَبَدًا جَديدًا وَثَناءً طارِفًا عَتيدًا أَجَلْ وَلَوْ حَرَصْتُ أَنَا وَالْعادّوُنَ مِنْ أنامِكَ أَنْ نُحْصِيَ مَدى إنْعامِكَ سالِفِهِ وَآنِفِهِ ما حَصَرْناهُ عَدَدًا وَلا أَحْصَيْناهُ أَمَدًا هَيْهاتَ أَنّى ذلِكَ وَأَنْتَ الْمخْبِرُ في كِتابِكَ النّاطِقِ وَالنَّبَأِ الصّادِقِ وَإنْ تَعُدّوُا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها صَدَقَ كِتابُكَ اللّهُمَّ وَإنْباؤُكَ وَبَلَّغَتْ أَنْبِياؤُكَ وَرُسُلُكَ

ما أنْزَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَحْيِكَ وَشَرَعْتَ لَهُمْ وَبِهِمْ مِنْ دينِكَ

إلٰهي المتنعم عليّ! لو أردت أنا العبد أن أؤدي شكر احدى نعمك علي، فانما افعل ذلك ببركة ما أغدقته من إحسانك الرباني، وهذا يستوجب اداء شكر جديد. نعم ايها الواحد الأحد، لو اردت أنا وكافة العادّون من أنامك أن نحصي مدى أنعامك التي أسبغتها علينا نحن العباد في الماضي والحاضر والمستقبل، لعجزنا عن حصرها فيعدد وزمن. هيهات! فكيف يمكننا القيام بذلك وكتابك الناطق بالحق والحقيقة والخبر الصادق يدوّي: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا»[1].

حقاً ماقال كتابك ياربي العظيم وصدق الخبر الذي أخبرت به وأبلغه انبياؤك ورسلك. لقد نزل عليهم هذا الكلام من وحيك وبلّغوا دينك الذي شرعته لهم وبهم.

٢١ـ غَيْرَ أَنّي يا إلٰهي أَشْهَدُ بِجُهْدي وَجِدّي وَمَبْلَغِ طاعَتي وَوُسْعي وَأَقولُ مُؤْمِنًا مُوقِنًا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا فَيَكُونُ مَوْرُوثًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في مُلْكِهِ فَيُضادَّهُ فيما ابْتَدَعَ وَلا وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ فَيُرْفِدَهُ فيما صَنَعَ فَسُبْحانَهُ سُبْحانَهُ لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا وَتَفَطَّرَتا سُبْحانَ اللهِ الْواحِدِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ الْحَمْدُ لِلّهِ حَمْدًا يُعادِلُ حَمْدَ مَلائِكَتِهِ الْمُقَرَّبينَ وَأَنْبِيائِهِ الْمُرْسَلينَ وَصَلَّى اللهُ عَلى خِيَرَتِهِ مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيّينَ وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ الْمخْلَصينَ وَسَلَّمَ

لكني أشهد ياإلٰهي بكافة مالدي من جهد وجد ومدى طاعتي ووسعي وأقول عن

---

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ٣٤.

ايمان ويقين: الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً فيرثه مثل الناس، ولم يكن له شريك في ملكه فيعارضه فيما ابتدع وخلق، ولم يكن له وليّ كي يكشف عن عجزه، بل إن قدرته المطلقة في عباده ليست بحاجة إلىٰ دعم ومساعدة.

رباه المنزّه العادل! انت منزه عن كل مؤازر وشريك، فلو كان في السماوات والارض آلهة غيرك لفسدت وتحطمت. سبحان الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد، الحمد لله حمداً بمقدار حمد ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين، وسلام الله وصلاته على صفيّه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين الذين وصلوا الى مقام الاخلاص.

٢٢ـ أللّٰهُمَّ اجْعَلْني أخْشاكَ كَأنّي أراكَ وَأسْعِدْني بِتَقْواكَ وَلا تُشْقِني بِمَعْصِيَتِكَ وَخِرْلي في قَضائِكَ وَبارِكْ لي في قَدَرِكَ حَتّى لا أُحِبَّ تَعْجيلَ ما أخَّرْتَ وَلا تَأخيرَ ما عَجَّلْتَ

يعود حرماننا نحن بني الانسان من نعمة المحاسبة العظيمة وتعظيم مقام الربوبية والخشية منه، الى اننا وبدلاً من ان يكون لنا فهم حقيقي لله، نلجأ الى صياغة مفهوم محدود له في زاوية من زوايا نفوسنا، بل قد نلحق به بعض الصفات البشرية، ونعود اليه عند حدوث المشاكل والاضطرابات!

رباه! أنت على حقّ تماماً حينما وجهت إلينا الخطاب التالي بنبرة تأنيب:

«مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً»[1].

على أية حال، علينا ان نعلم: لو أردنا الوصول الى السعادة الحقيقية، فليس امامنا من

---

١ ـ سورة نوح، الآية ١٣.

طريق سوى طريق التقوى الحقيقية التي هي «الصيانة الكاملة للذات»، ومن المستحيل ان تتحقق لنا هذه التقوى دون أن نؤمن أنّ الحياة والموت من الله:

«قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[١].

ألم نقل: إنا لله وإنا إليه راجعون؟

نعم، انّ هذه حقيقة لاغبار عليها. اذاً فهل يعتمد وجودنا على مفهوم ذهني، ثم نعود آخر المطاف الى هذا المفهوم الذهني نفسه؟!

إلٰهي! اِلام هذا الحرمان من الاتصال الحقيقي واللقاء بك؟ وحتى متى والى متى هذا الفراق المرّ والغفلة عن مرارته التي هي امرّ من الموت؟! يا من هو اقرب مني اليّ، فـإلىٰ متى أعزّي نفسي وأنا لست لا أطيق لوعة فراقك فحسب، بل وأصبّر نفسي قائلاً:

«دع التحدث عن الهجران ولوعة القلب الى وقت آخر» إلٰهي! لو لم اكن بعيداً عنك، لخشيت دائماً منك وفزعت من الرجس الذي يلوث قلبي، ولما تـقرّبت مـن الذنـوب، ولغمرني السرور بقضائك الرباني وقدرك المبارك حتى أبدو وكأنني قد رسمت صورتهما بقلمي ورغبتي الكاملة.

فلو كنت معك، وكان لدي ايمان أنك معي، لنلت الغنى الذاتي وعدم الحاجة الى أحد، ولأصبحت ذلك الانسان الكامل الذي تحدث عنه الطغرائي في لاميته الشهيرة:

وانما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعوّل في الدنيا على رجل

فحينما يُحرم المرء من الحضور بين يدي الله تعالى، فإن أوّل نعمة حياتية تُسلب منه هي اليقين، وهذا ما يحرض الشك والإنكار والحدس والوهم على مهاجمة القلب

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ١٦٢.

والعقل، أو كما قال **مولوي**:

فَتَحَ باب الوسوسة والهواجس على نفسه
وطـــرد الحـــبَّ اللاأُبـــالي [١]

وحينما ينعدم اليقين من القلب، تصبح سفينة وجود الانسان ـ التي لا مرسى لها ولا دفّة ولا بوصلة ـ ألعوبة بيد أمواج الحوادث التي لا ترحم.

٢٣ـ أللّٰهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ في نَفْسي وَالْيَقينَ في قَلْبي وَالإخْلاصَ في عَمَلي وَالنُّورَ في بَصَري وَالْبَصيرَةَ في ديني وَمَتِّعْني بِجَوارِحي وَاجْعَلْ سَمْعي وَبَصَرِي الْوارِثَيْنِ مِنّي وَانْصُرْني عَلى مَنْ ظَلَمَني وَأَرِني فيهِ ثأري وَمَأربي وَأَقِرَّ بِذلِكَ عَيْني

في ذلك اليوم النهائي الذي أسميته بالقيامة، والذي هو بداية الأبدية، إجـعلني فـيه اللهم ممّن أفلح في أداء المسؤولية أزاء العين والأذن وباقي الجوارح والقوىٰ التي وهبتها لي. ففي ذلك اليوم:

يقول الله ماالذي جئتَ به
بعد الفرصة التي منحتها لك؟
وفيم أمضيتَ عمرك؟
وفيما أفنيتَ قُوْتَك وقوَّتك؟
أين صرفت جوهرة البصر؟
وأين استخدمتَ حواسك الخمس؟

---

١ ـ لا يـراد بـالافكار المـعنى الايـجابي والحـياتي، بـل التـخيلات والأوهـام التـي لا أسـاس لهـا والتجسدات المستمرة الشبيهة بالوسوسة.

انفقتَ الأذن والعين والعقل وجواهر العرش
فماذا اشتريتَ من متاع؟
الرجل واليد اللتان منحتهما لك كوسائل عمل
لم أهبهما عبثاً، فماذ فعلت بهما؟ «مولوي»

رباه! إنّ ذلك الجائر الشقي الشاهر سيفه، قد أقدم علىٰ قتلي، وأنهىٰ حياتي تلك التي كانت كل لحظة من لحظاتها تعطي طعم الأبدية، لحضوري فيها بين يديك، والتي كنت أتألق فيها سعادة كلما شعرت أني أعيش في أجواء طاعتك. فيابستانيّ بستان الوجود الكبير، إنه قد كسر غصناً مثمراً من فسيل بستانك، بل واقتلع ذلك الفسيل من الجذور. وأنت الذي تعرف عظمة هذا الفسيل وقيمته الحقيقية، كما انك تعرف كيف تثأر وتنتقم من هذا الشرير المجتث لفسائل الوجود.

٢٤ـ أللّٰهُمَّ اكْشِفْ كُرْبَتي وَاسْتُرْ عَوْرَتي وَاغْفِرْ لي خَطيئَتي وَأخْسِئْ شَيْطاني وَفُكَّ رِهاني وَاجْعَلْ لي يا إلهي الدَّرَجَةَ الْعُلْيا في الآخِرَةِ وَالأُولى

نعم:

الفخ قاسٍ لولا لطف الله
ولولاه لما نجا المرء من الشيطان الرجيم «حافظ»

***

يامن نلجأ اليه في حاجاتنا دائماً
ها نحن ضللنا الطريق ثانية
كل يوم نقع في فخ جديد

حتى ولو كان كل منا بازاً او عنقاء
رباه! مئات الألوف من الأفخاخ والحبوب
ونحن كالطيور نهمون وبؤساء «مولوي»

الناس وللأسف غافلون غفلة عجيبة ومخجلة عن شيطانين قويين وهما: الشيطان الخارجي المطرود عن باب الله والشيطان الداخلي، اي النفس الامارة بالسوء، او ذاتنا الطبيعية الجامحة. ونحن نرزح في أغلال هذه الغفلة وكأنّ موجوداً باسم الشيطان لا يفكر باغوائنا، او اننا لا نحمل النفس الامارة او الغريزة. وتدفعنا هذه الغفلة المخجلة الى تمضية الحياة بفراغ بال وكأنه لا وجود لأي نوع من انواع المحاسبة!

اللهم اجعلنا ممن يدرك عظمة حيوية الشعور بالتكليف وأدائه، ويقوىٰ على أداء الحقوق المفروضة، كي لاتفقد حياتنا جوهرها، ولا تنحرف عن هدفها الأساس.

٢٥ـ أللّٰهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَما خَلَقْتَني فَجَعَلْتَني سَميعًا بَصيرًا وَلَكَ الْحَمْدُ كَما خَلَقْتَني فَجَعَلْتَني خَلْقًا سَوِيًّا رَحْمَةً بي وَقَدْ كُنْتَ عَنْ خَلْقي غَنِيًّا رَبِّ بِما بَرَأْتَني فَعَدَّلْتَ فِطْرَتي رَبِّ بِما أَنْشَأْتَني فَأَحْسَنْتَ صوُرَتي رَبِّ بِما أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَفي نَفْسي عافَيْتَني رَبِّ بِما كَلأْتَني وَوَفَّقْتَني رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَهَدَيْتَني رَبِّ بِما أَوْلَيْتَني وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَيْتَني رَبِّ بِما أَطْعَمْتَني وَسَقَيْتَني رَبِّ بِما أَغْنَيْتَني وَأَقْنَيْتَني رَبِّ بِما أَعَنْتَني وَأَعْزَزْتَني رَبِّ بِما أَلْبَسْتَني مِنْ سِتْرِكَ الصّافي وَيَسَّرْتَ لي مِنْ صُنْعِكَ الْكافي صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ

لو أمضينا أيام عمرنا ولياليه وساعاته كافة في عدّ هذه النعم والعطايا الإلٰهية، ولو

اجتمعنا مع كافة كائنات عالم الوجود لحمد الله والثناء عليه، لعجزنا عن ذلك، لأنّ فتح الفم وتحريك اللسان، فيض من الفيّاض المطلق، وهذا بحد ذاته بحاجة إلىٰ ثناء آخر.

٢٦ـ وَأَعِنّي عَلى بَوائِقِ الدُّهُورِ وَصُرُوفِ اللَّيالي وَالأَيّامِ وَنَجِّني مِنْ أَهْوالِ الدُّنْيا وَكُرُباتِ الآخِرَةِ وَاكْفِني شَرَّ ما يَعْمَلُ الظّالِمُونَ فِي الأَرْضِ اللّهُمَّ ما أَخافُ فَاكْفِني وَما أَحْذَرُ فَقِني وَفي نَفْسي وَديني فَاحْرُسْني وَفي سَفَري فَاحْفَظْني وَفي أَهْلي وَمالي فَاخْلُفْني وَفيما رَزَقْتَني فَبارِكْ لي وَفي نَفْسي فَذَلِّلْني وَفي أَعْيُنِ النّاسِ فَعَظِّمْني وَمِنْ شَرِّ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فَسَلِّمْني وَبِذُنُوبي فَلا تَفْضَحْني وَبِسَريرَتي فَلا تُخْزِني وَبِعَمَلي فَلاتَبْتَلِني وَنِعَمَكَ فَلا تَسْلُبْني وَإِلى غَيْرِكَ فَلا تَكِلْني إِلهي إِلى مَنْ تَكِلُني إِلى قَريبٍ فَيَقْطَعُني أَمْ إِلى بَعيدٍ فَيَتَجَهَّمُني أَمْ إِلَى الْمُسْتَضْعِفينَ لي وَأَنْتَ رَبّي وَمَليكُ أَمْري أَشْكُو إِلَيْكَ غُرْبَتي وَبُعْدَ داري وَهَواني عَلى مَنْ مَلَّكْتَهُ أَمْري إِلهي فَلا تُحْلِلْ عَلَيَّ غَضَبَكَ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَضِبْتَ عَلَيَّ فَلا أُبالي سِواكَ سُبْحانَكَ غَيْرَ أَنَّ عافِيَتَكَ أَوْسَعُ لي

الهي! ليس لي من قوة أو محفّز غير ألطافك وعناياتك الفريدة لتحمل البلايا والمصائب وأهوال الحياة الرهيبة وكربات الآخرة المرعبة. فقابليتنا نحن الناس محدودة امام الافراح والاتراح؛ بحيث يتعذر على الايحاءات الواهية والتعزيزات الجسمية والنفسية المنبعثة عن الاسباب والوسائل المادية، أن تدفع تلك الكروب والاهوال.

وعلى صعيد آخر فانّ إيماننا بعدلك الراسخ ورحمتك التي لا حدود لها، يـزيد مـن قابلية تحملنا واصطبارنا، وبالتالي تغلبنا على كافة عقبات الحـياة بـما فـيها تـعديات الجائرين وانتهاكاتهم الذين يفتخرون بنشر الفساد في الارض والكامنين للانـقضاض علىٰ الأبرياء والإيقاع بهم.

لقد ملأت غطرسة المتغطرسين ـومنذ بداية الحياة الاجتماعية للانسان على وجه الارض وإلى يومنا هذا ـ آفاق مجتمعات الضـعفاء والبـؤساء بـالرعب والفـزع. ولولا الصلابة العظيمةالتي تتميز بها طبيعة الحياة الإنسانية المعبأة بالحكمة الإلٰـهية البـالغة، لقوّض هذا الرعب والفزع صرح الحياة على الأرض برمتها، لأنّ الاقوياء يلجأون فـي بداية الامر الى تدمير الضعفاء، ثم تلجأ العناصر الاقوى الى تدمير العناصر الاقل قوة طبقاً لمنطق «انتصار القوي على الضعيف»، وهكذا حتى لا يظل من يمرح على وجه الارض سوى «اللفياثان»[١] على حد تعبير العالم الانساني هوبس[٢].

رباه! اولئك الوحوش المتجبرون الذين يُرهبون عبادك ويُفزعونهم، إفـتح عـيونهم على المبادىء والقيم الانسانية ما سمحت بذلك عناياتك الربانية. واذا كـانت آثـامهم وخبائثهم من الشدة. بحيث لا تستوعبهم عناياتك وألطافك الالهية، فاشغلهم بأنفسهم، او امحهم من الوجود اذا اقتضت حكمتك الربانية ذلك.

اللهم! احرسني بقدرتك المطلقة أنا العاجز الذي طوّقته عوامل الضعف من كل جانب بسبب غلبة قُوى الهوىٰ والغرائز الحيوانية.

اللهم بارك لي في رزقي الذي قسمت لي كي لا أُلوّث نفسي بلقمة حرام ولا اعتدي على حق احد في سعيي إليه. فأيام حياتنا ولياليها وساعاتها نحن بني الانسـان ليست دائماً بالشكل الذي بامكاننا ان نحفظ فيه الاشياء، أو نحرس الناس الذين هم في كنفنا

---

١ ـ Leviathan: حيوان بحري ضخم يفترس كافة الحيوانات الصغيرة. ويقول بعض علماء اللـغة ان «لفياثان» تعني الحوت البحري.

٢ ـ Hobs.

وتحت تربيتنا بشكل مباشر. فقد تمر أوقات نعجز فيها عن صيانة ما يخصنا ويتعلق بنا. وفي مثل هذه الاحوال نتجه الى الله البصير السميع المشرف على كافة الوجود والمحيط بكل شيء، فيحول سبحانه وتعالى دون وقوع الكوارث والمحن انطلاقاً مما لديه من لطف لايتناهىٰ.

رباه! أنزل عليّ رحمتك وفيضك الإلٰهي كي أشعر دائماً بحاجتي إلى التسامي وفقري الى الكمالات التي أوجدت في ذاتي إمكانية بلوغها، كي أسعىٰ لنيل ذلك التسامي وإغناء ذلك الفقر. واحفظني خلال ذلك من أن أكون ذليلاً في أعين الناس، لما في ذلك من اسقاط لشخصيتي وخلق الكثير من المشاكل لي.

مولاي الكريم، الذنوب التي اقترفتها يداي، تقصيني عنك. وكلما سوّدت ظلمات المعاصي والقبائح نفسي، لا أجد أحداً غيرك ينقذني من هذه الآثام والظلمات، فألجأ اليك حينئذ صارخاً هاتفاً دون انقطاع: «يا اله العاصين»، فتمد يدك الرحيمة لي وتنقذني من السقوط في هوة اليأس.

رباه! لا تكلني سوى إلىٰ أعتاب كبريائك لأنه:

لا يمكن توقع المساعدة من الغريق
وأهل الدنيا بعضهم أعجز من بعض

والناس الذين ألتجىء إليهم إما من أقربائي وحينئذ سيلتفون حولي في بداية الامر بدافع بعض العوامل الطبيعية والثانوية، ثم سرعان ما يتخلون عني وينطلقون وراء مصالحهم؛ وإما من أعدائي، والعدو لا يمكن الاعتماد او التعويل عليه. فنحن جميعاً نعلم:

كلّ من أُجالسه
فلا بد أَنْ اتركه يوماً «منسوب الى نظامي»

سيداه! انت خالقي ومالكي المطلق، إلا أنني سأظل وحدي لو أردت أن أتحرك في

هذه الدنيا على أساس العدل والحق؛ وانطلاقاً من شعوري بالتكليف وما أُلقي على عاتقي من مهام. فامنحني القوة التي لا أشعر معها بالوحشة من الوحدة وبعد المنزل، وأَن أفهم هذه الحياة على أنها حضرتك وبابك، وأن لا أدع للحزن والكآبة ـ المنبعثين من الشعور بالوحدة ـ مجالاً للنفوذ الى قلبي، وأن استأنس بعنايتك. واذا ما ادت اعمالي الى تسكين غضبك، فليس بمقدور احد ان يؤججه ابداً فوفقني اللهم لتلك الاعمال. ورغم هذا إني أعلم أنّ مغفرتك ورحمتك وكرمك وعفوك اوسع من كلّ شيء، وهي أوسع لي من كل أحد ومن كل شيء.

٢٧ـ فَأسْأَلُكَ يا رَبِّ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أشْرَقَتْ لَهُ الأَرْضُ وَالسَّمَاواتُ وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُماتُ وَصَلُحَ بِهِ أَمْرُ الأَوَّلينَ وَالاخِرينَ أَنْ لا تُميتَني عَلى غَضَبِكَ وَلا تُنْزِلَ بي سَخَطَكَ لَكَ الْعُتْبى لَكَ الْعُتْبى حَتّى تَرْضى قَبْلَ ذلِكَ

إلهي قَسَماً بنور جمالك الواسع الذي أضاء الارض والسماوات وبدد الظلمات، نسألك ان تمنّ علينا ببصيرة ثاقبة كي لا نكون مثل اولئك الجهلاء الذين يبحثون عن نور الشمس بعود ثقاب.

ما اكثر الجهلاء الذين يبحثون
في البيداء عن الشمس المشرقة بشمعة «الشيخ محمود الشبستري»
نحن لا نريد من الابصار
سوى البصر الثاقب الذي اخترته انت
ولا نريد بعد هذا سوى البصيرة
كي لا تغطي الأشواك البحر «مولوي»

رباه! اجعل الحقيقة التالية مفهومة لدينا:

اذا لم تهبه القلب فمن سيهبك الطمأنينة
ولو لم تختر حزنه، فأي حزن تختار
ألقِ نظرة خفيّة علّك تراه جهراً
ولو لم تره في الكون، فماذا ترى؟ «ملا محسن فيض الكاشاني»

اللهم اجعل ذلك النور العظيم من نصيب بصائرنا كي نحظى بزيارة ملكوت الآفـاق والأنفس، ونجد نظام الوجود العالي.

ثم أُقسم عليك بهذا النور الواهب للوجود الذي أسرج سراج الوجود، أن لا تـميتنا وأنت غير راض عنا. وإنْ كنت غير راضٍ عنا، فانّ الخسارة الأبدية للقائك لابد وأن تلقي بنا في حضيض الذلة والضياع.

٢٨ـ لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ رَبَّ الْبَلَدِ الْحَرامِ وَالْـمَشْعَرِ الْـحَرامِ وَالْـبَيْتِ الْعَتيقِ الَّذي أَحْلَلْتَهُ الْبَرَكَةَ وَجَعَلْتَهُ لِلنّاسِ أَمْنًا

اللهم اجعلنا ممن يحترم هذا البيت المقدس، وممن ينتفع بمنافع الطـواف والسـعي والوقوف، ويزيح عن نفسه كافة الأدران والآثام بواسطة الإِحرام وباقي مناسك الحج.

وأية عبادة اعظم من عبادة الحج التي تعني الانقطاع عن العلائق والنزعات الدنيوية كافة وتطهر النفس وتجعلها أهلاً للمثول بين يدي الله؟ وليس بإمكان العبد أن يقول عند الحضور في بيت الله الحرام سوىٰ هذا القول:

حينما تحدثتُ عن الصفاء عند مائدة الوحدة
عزفتُ عن كافة الملك والملكوت
أَغلقتُ باب الغير وحطمت صنم نفسي

واحتسيتُ خمر الولاء وسكرتُ من دنّ الحبيب
ولا يمكن تصور أي أعمال قمتُ بها
لإزالة نقش الكثرة من مرآة الروح
كان مكاني في الدير وقدمي وصلت الى الحرم
وطرقتُ ألف باب قبل أن أطرق باب الكبرياء
وضعتُ قَدَم الوجود عند عتبة القِدَم
وركزتُ عَلَم الشهود بين يدي الله
وأشحتُ عن بساط المُلك وجلستُ على الحصير
للفوز بزرابيّ استبرق جنّة الحقائق «الحكيم صفا الاصفهاني»

٢٩ـ يا مَنْ عَفا عَنْ عَظيمِ الذُّنُوبِ بِحِلْمِهِ يا مَنْ أَسْبَغَ النَّعْماءَ بِفَضْلِهِ يامَنْ أَعْطَى الْجَزيلَ بِكَرَمِهِ ياعُدَّتي في شِدَّتي ياصاحِبي في وَحْدَتي ياغِياثي في كُرْبَتي ياوَلِيّي في نِعْمَتي ياإلهي وَإلهَ آبائي إبْراهيمَ وَإسْمعيلَ وَإسْحقَ وَيَعْقوُبَ وَرَبَّ جَبْرَئيلَ وَميكائيلَ وَإسْرافيلَ وَرَبَّ مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيّينَ وَآلِهِ الْمُنْتَجَبينَ وَمُنْزِلَ التَّوْراةِ وَالانْجيلِ وَالزَّبوُرِ وَالْفُرْقانِ وَمُنَزِّلَ كهيعص وَطه وَيس وَالْقُرْآنِ الْحَكيمِ أَنْتَ كَهْفي حينَ تُعْيينِي الْمَذاهِبُ في سَعَتِها وَتَضيقُ بِيَ الْأَرْضُ بِرُحْبِها وَلَوْلا رَحْمَتُكَ لَكُنْتُ مِنَ الْهالِكينَ وَأَنْتَ مُقيلُ عَثْرَتي وَلَوْلا سَتْرُكَ إيّايَ لَكُنْتُ مِنَ الْمَفْضوُحينَ وَأَنْتَ مُؤَيِّدي بِالنَّصْرِ عَلى أَعْدائي وَلَوْلا نَصْرُكَ إيّايَ لَكُنْتُ مِنَ الْمَغْلوُبينَ

إلٰهي، بهذا العجز عن السيطرة على الغرائز الحيوانية، وبهذه الغفلة المتعمدة عن عظمة الحياة والتي استوعبت اوقاتنا نحن بني الانسان، ليس هناك من نعلّق عليه الامل في غفران ذنوبنا وآثامنا التي تثقل ظهورنا سوى حكمتك الربوبية وعفوك الإلٰهي وحلمك الواسع، لأنّ إكسير التغيير بيدك.

أيها الرب المنزه الذي لا نظير له ولا صاحب
ساعدنا واعف عن جرمنا
علِّمنا الكلمات الرقيقة
كي نستدر بها عطفك يا رفيق
يا مَنْ منه الدعاء والإجابة
ومنه الأمن والخوف
أَصلح قولنا الخاطئ
فأنت المصلح يا ملك الكلام
ولديك الإكسير الذي تبدل به الاشياء
وإنْ كان نهر دم، تحوّله الى نيل
فهذه البدائع من أعمالك
وهذه الإكسيرات من أسرارك «مولوي»

خلال ظروف العسر والشدة، وحينما تلفّ الظلمات نفوسنا، ونقطع الآمال من كل أحد، وتتبدد الأماني والطموحات، ولا تبدو في الافق أية نافذة يمكن ان تسرب الضوء، يتلألأ آنذاك نور الحياة مرة أخرىٰ في آفاق رحمتك وكأننا على موعد معه، وتسري روح جديدة في أجسادنا، وتكشف الدنيا لنا عن وجهها المحبب.

رباه! يا ملجأ كافة اللاجئين حين انهمار امواج الويلات والكوارث، أنِلنا الدعة والراحة في كنف حمايتك ورعايتك.

ايها المعبود المطلق، يا خالق ابراهيم واسحاق واسماعيل ويعقوب ، وإلٰه جبريل وميكائيل وإسرافيل، ورب محمد خاتم الانبياء وآله الذين اجتبيتهم، يا مُـنْزِل التـوراة والانجيل والزبور والقرآن، ومُنَزّل كهيعص وطه ويس والقـرآن الحكـيم، انت مـلجئي وحصني حينما تُسدّ عليّ طرق الحياة ومنافذها، وتظلم الارض وتضيق رغم رحائبها، وحينما لا أجد أي علاج لتلك الكربات التي تطوقني من كل حدب وصوب.

ففي تلك اللحظات:

تزداد حيرتي مع ذهابي لأي صوب
حذارِ من هذه الصحراء وهذا الطريق الطويل «حافظ»

وفي تلك اللحظات أشاهد كل مكان أحدق فيه مثل جدران ذات منافذ تسرّب النور، إلا أنّ ذلك النور المتسرّب ليس بإمكانه إنقاذ طائر حياتي، ولا بد لي أن أتمتم بـالبيت التالي:

لاتُخدع فتتصور ضحكة الدنيا رحمة
فمنافذ القفص ليست منافذ للنجاة

وأرفع الرأس الى السماء بانتظار هطول غيث رحمتك الذي تـبعثه دون مـقابل الى الازهار الذابلة في نفوس عبادك، فتنفخ فيها الحياة من جديد.

رباه! أنت الرحيم الكبير الذي تمنع عني انتقامك وما يترتب من آثار عـليه بسـبب أخطائي وشطحاتي، ولا تسمح للحجب بالانقشاع فتعصف الفـضيحة القـاتلة بشـرفي وكرامتي. وانت الذي تُنزل عليّ النصر والظفر في مواجهة الأعداء الذين يحيطون بي من كل جانب، كي أكون في مأمن من عار الهزيمة وشنارها.

٣٠ـ يامَن خَصَّ نَفسَهُ بِالسُّمُوِّ وَالرِّفْعَةِ فَأوْلِياؤُهُ بِعِزِّهِ يَعْتَزّوُنَ يامَنْ جَعَلَتْ لَهُ الْمُلوُكُ نِيرَ المَذَلَّةِ عَلى أعْناقِهِمْ فَهُمْ مِنْ سَطَواتِهِ خائِفُونَ يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وَماتُخْفي الصُّدوُرُ وَغَيْبَ ماتَأتي بِهِ ألأزْمِنَةُ وَالدُّهوُرُ يامَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاّ هُوَ يامَنْ لايَعْلَمُ ما هُوَ إلاّ هُوَ يامَنْ لا يَعْلَمُهُ إلاّ هُوَ يامَنْ كَبَسَ ألأرْضَ عَلَى الْماءِ وَسَدَّ الْهَواءَ بِالسَّماءِ يامَنْ لَهُ أكْرَمُ الأسْماءِ يا ذَا الْمَعْرُوفِ الَّذي لا يَنْقَطِعُ أبَدًا

رباه! أنت الإله الذي خصّ ذاته وصفاته بالعظمة والعلو المطلقين، فيعتزّ اولياؤه بالانتساب اليه.

رباه! أنت الذي ذلّ له الملوك، وخافوا سطوته وهيمنته، وأنت العليم بخائنة الأعين وما يختفي داخل الصدور.

يا أيّها الذات القدسية التي لا يعرف كيف هي أحدٌ غيره؛ وايها الذات التي لا نهاية لها ولا يعرف ماهي إلا هو، يا أيّها الرب الذي طوّق الأرض بالبحار والهواء بالسماء، يا من له أعظم الأسماء، ايها المحسن الذي لا ينقطع إحسانه ولا ينتهي معروفه ابداً.

٣١ـ يا مُقَيِّضَ الرَّكْبِ لِيوُسُفَ في الْبَلَدِ الْقَفْرِ وَمُخْرِجَهُ مِنَ الجُبِّ وَجاعِلَهُ بَعْدَ الْعُبُودِيَّةِ مَلِكًا يا رادَّهُ عَلى يَعْقوُبَ بَعْدَ أنِ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظيمٌ يا كاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوى عَنْ أيُّوبَ وَيا مُمْسِكَ يَدَيْ إبْراهيمَ عَنْ ذِبْحِ إبْنِهِ بَعْدَ كِبَرِ سِنِّهِ وَفَناءِ عُمْرِهِ يامَنِ اسْتَجابَ لِزَكَرِيّا فَوَهَبَ لَهُ يَحْيى وَلَمْ يَدَعْهُ فَرْدًا وَحيدًا يامَنْ أخْرَجَ يُونُسَ مِنْ بَطْنِ الْحُوْتِ يامَنْ فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَني إسْرائيلَ فَأنْجاهُمْ وَجَعَلَ فِرْعَوْنَ

وَجُنُودَهُ مِنَ الْمُغْرَقِينَ يامَنْ أَرْسَلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ يامَنْ لَمْ يَعْجَلْ عَلى مَنْ عَصاهُ مِنْ خَلْقِهِ يامَنِ اسْتَنْقَذَ السَّحَرَةَ مِنْ بَعْدِ طُولِ الْجُحُودِ وَقَدْ غَدَوْا في نِعْمَتِهِ يَأْكُلُونَ رِزْقَهُ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَقَدْ حادُّوهُ وَنادُّوهُ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ

العظمة والكبرياء والعزّة والصفات العليا كلها لله ذي الجلال، وليس بإمكان أيّ أحد أن يشارك الله فيها.

والانسان بحاجة إلىٰ وعي وبصيرة كي يعترف بتفاهته وعجزه المطلق أمـام الذات الإلهية. نعم:

قلتُ كل هذا، وعند العمل
إنّا لاشيء ابداً بدون عنايات الله
المرء حياته سوداء حتى لو كان ملكاً،
لولا عنايات الحق وخاصة الحق
ياربّ! يامن يقضي الحوائج بفضله
لا يجوز ان يُذكَر بوجودك احد
وهبتنا هذا الاحسان الكبير
وسترتَ هذه العيوب الكثيرة
ياربّ أيها الخالق الواحد الأحد
المطّلع على السرّ والعلانية
ياربّ أيها الخالق الواحد الأحد
منك ظهر هذا العالم الكبير
وقطرة العلم التي وهبتها من قبل

أوصلها ببحارك
وقطرة العلم التي في نفسي
نقّها من الهوىٰ وشوائب الجسد «مولوي»

ما أجهل اولئك الذين لا يدركون معنى الاتصال بعظمة الله وكبريائه والقائلين: على المرء أن يقف علىٰ قدميه وان يكون لديه استقلال في حياته وأن لا يعتمد على احد حتىٰ على الله عز وجل!!

وأفضل كلام يوجَّه إلىٰ هؤلاء إذاكان لهم آذان يسمعون بها: إن عليكم وقبل أي شيء ان تفقهوا مفهوم الله وعظمته وجلاله، ثم تتعرفوا على الانسان، ثم تفهموا من بعد ذلك معنى الاتصال بين الانسان وبين الله تعالىٰ.

وهذا الاتصال لا صلة له بمقولة اعتماد الضعيف على القوي مع استمرار ضعف الضعيف، بل اعتماد العاجز على القدير المطلق مع إمكانية أن يفيد ذلك العاجز من تلك القدرة المطلقة في كل لحظة. ولم يشك أحد اليوم في حقيقة أن الانبياء والائمة والاولياء الصادقين، أقوى الرجال على وجه الارض لتوكلهم على الله تعالىٰ.

وتكفي نظرة حقيقية واعية نلقيها على شخصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام للبرهنة على هذه الحقيقة؛ وهي أنه هذا الرجل الكبير كان أقوىٰ رجال التأريخ البشري بعد خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله، إذكان يرىٰ إمرته علىٰ أكثر من عشرة بلدان أتفه من نعلٍ، مالم يُقم حقّاً او يدفع باطلاً. كان يمسك بزمام نفسه، ولم تدخل إلىٰ قلبه ذرة خوف من كثرة أعدائه وتحاشدهم عليه، حتى انه عليه السلام قال:

«إني والله لو لقيتهم واحداً وهم طلائع الارض كلها ماوَلّيْت وما استوحشت»[١].

ومقولة وجوب الخشية والخوف من الله الغالب القاهر لا تعني أنه يقهر مخلوقاته

---

١ ـ نهج البلاغة، الكتاب رقم ٦٢ لأهل مصر.

بدافع من حبّ الانتقام او الغطرسة، كما هو الحال عندنا نحن الناس، لأنه سبحانه ليس بحاجة الى خلق المخلوقات، وإنما خلقها من أجل إفاضة الفيض والخيرات والكمالات. كما أن الانتقام والغطرسة لا معنى لهما لديه، بل إن نتائج اعمالنا وسلوكياتنا وأقـوالنـا وأفكارنا هي التي تأخذ بتلابيبنا، طبقاً للسنة الإلٰهية.

هكذا تأويل قد جفّ القلم [1]
للحثّ على إنجاز الفعل الأهم
والقلم يكتب ويسجّل
مايناسب كل عمل من جزاء
فلو انحرفتَ، وصلتَ الى نقطة منحرفة
ولو استقمتَ، وصلتَ الى الغاية الصحيحة
ولو سرقتَ، قُطِعتْ يدُك
ولو شربتَ الخمر، لسكرت «مولوي»

أيها الربّ الأعظم من قياسنا وحدسنا وفهمنا نحن الناس، أيّها المنزه من كل مفهوم وصفة منتزعة عن مخلوقاتك ونحاول ان نعبّر بها عنك! فـقابلية الحـواس المـحدودة، والوسائل المحدودة، والقوى الذهنية المعتمدة عـلى هـذه الحـواس والوسـائل، ليس بامكانها الوصول الى معرفة تلك الحقيقة التي هي فوق كل هذه الحواس والأسباب.

اللهم إنا ندعوك أنْ تضيء قلوبنا بأنوار الربوبية. ولو سعينا للاتصال بهذا المـوجود العلوي، فلا شك أنه لن يحرمنا من نور وجوده لما لديه من لطـف ربـوبي لا حـدود له. وسنرى ذلك في الفقرات التالية من الدعاء.

---

١ ـ إشارة الى الحديث المأثور القائل «قد جفّ القلم بما هو كائن الى يوم الدين». راجع سفينة البحار، المحدث القمي، ج٢ ص ٤٤٣. [المعرّب]

٣٢ـ يا أللهُ يا أللهُ يا بَديُّ يا بَديعُ لا نِدَّ لَكَ يا دائِمًا لا نَفادَ لَكَ يا حَيًّا حينَ لا حَيَّ يامُحْيِيَ الْمَوْتى يامَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ يامَنْ قَلَّ لَهُ شُكْري فَلَمْ يَحْرِمْني وَعَظُمَتْ خَطيئَتي فَلَمْ يَفْضَحْني وَرآني عَلَى الْمَعاصي فَلَمْ يَشْهَرْني يامَنْ حَفِظَني في صِغَري يامَنْ رَزَقَني في كِبَري يامَنْ أياديهِ عِنْدي لاتُحْصى وَنِعَمُهُ لا تُجازى يامَنْ عارَضَني بِالْخَيْرِ وَالْاحْسانِ وَعارَضْتُهُ بِالإساءَةِ وَالْعِصْيانِ يامَنْ هَداني لِلأيمانِ مِنْ قَبْلِ أنْ أعْرِفَ شُكْرَ الْإمْتِنانِ يامَنْ دَعَوْتُهُ مَريضًا فَشَفاني وَعُرْيانًا فَكَساني وَجائِعاً فَأشْبَعَني وَعَطْشانَ فَأرْواني وَذَليلاً فَأعَزَّني وَجاهِلاً فَعَرَّفَني وَوَحيدًا فَكَثَّرَني وَغائِباً فَرَدَّني وَمُقِلاً فَأغْناني وَمُنْتَصِرًا فَنَصَرَني وَغَنِيًّا فَلَمْ يَسْلُبْني وَأمْسَكْتُ عَنْ جَميعِ ذلِكَ فَابْتَدَأني فَلَكَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ يامَنْ أقالَ عَثْرَتي وَنَفَّسَ كُرْبَتي وَأجابَ دَعْوَتي وَسَتَرَ عَوْرَتي وَغَفَرَ ذُنُوبي وَبَلَّغَني طَلِبَتي وَنَصَرَني عَلى عَدُوّي وَإنْ أعُدَّ نِعَمَكَ وَمِنَنَكَ وَكَرائِمَ مِنَحِكَ لا اُحْصيها

اوجد الله العظيم نظام الخلقة الكبير وأجراه بكافة كائناته وقوانينه الحادثة. فوجوده سبحانه أوسع من الزمان والمكان، وسرّ الأبدية والخالقية ينبع من ذاته. وهو صاحب الحياة الحقيقية، وواهب الحياة لكافة الأحياء ابتداءً او ما بعد الموت. انه القيّوم الذي يستمد الناس منه قوتهم لأداء الاعمال وممارسة النشاطات، حيث لا حول ولا قوة الا بالله. وإنه الغني المطلق الذي لا يجعل شكرنا ثمناً لنعمه.

فاذا كنا نحن الناس ننعم بنعمة البصر، فأمامنا من الحقائق مايمكن أن ندرك به إدراكاً ابتدائياً خالصاً هذه الألطاف العالية. ونشاهد مظاهر من هذه الحقيقة ليلاً ونهاراً.

ماذا تفعل الوردة الضاحكة إن لم تضحك؟
وماذا تهب اذا لم تهب الرائحة الذكية؟
والقمر المنير، ماذا يكشف ويفعل
غير الحسن والدلال؟
والشمس اذا لم تبعث الاشعة والنور
فماذا تفعل السماء بهذه الدرّة؟ «مولوي»

اللهم يا ستّار يا ودود، ما اكثر المعاصي التي ارتكبتُها فأسدلتَ عليها الستار، اللهم يا حليم يا حكيم، كيف أرِدُ عليك من بوابة الدعاء وأتحدث اليك وأنا خجل منك؟ وكيف أرفع يدي متضرعاً بين يديك وانا الذي قابلتُ خيرك وإحسانك بالسيئات والمعاصي؟

يا هادي المهتدين ويا مسيّر السائرين في طريق الكمال، إنك هديتني نحو الايمان قبل أنْ أستحق هذه النعمة عن طريق الشكر والحمد.

وفي هذا الدعاء العظيم الذي خلّفه لنا رائد شهداء طريق الحق والحقيقة الامام الحسين عليه السلام، نلاحظ وفي عدة مواضع منه اعترافه بالخطأ والمعصية وطلبه العفو والصفح من الله. وهذا ما قد يثير السؤال التالي: لماذا هذا الاصرار من الإمام وباقي الائمة والانبياء عليهم السلام على الاعتراف بالذنوب والمعاصي وطلب المغفرة من الله تعالىٰ رغم انهم لم يرتكبوا ذنباً ولا معصية؟

وللاجابة نقول: إن اعترافات المعصومين عليهم السلام يمكن ان تكون على نوعين:

الاول: ويتعلق بالاستعداد لارتكاب المعصية. ويوجد هذا الاستعداد في كل موجود

ممكن الوجود[١]. فلو لم يكن لدى المرء الاستعداد والقابلية لارتكاب الذنب، لكانت الطاعة والتقوىٰ وكافة الاعمال التكاملية أعمالاً جبرية، ولخرجت عن مدار الفضيلة والقيم التي لا تتحقق إلا مع الاختيار. ولهذا فمعنى الاعتراف بالخطأ والندم، هو في الحقيقة الخشية من ارتكاب الاخطاء والمحرمات التي يلمحها المعصوم خلال حركته التكاملية، ويلتجئ الى الله ويتوب اليه من التلوث بها.

الثاني: ويتضمن معنى عالياً جداً وهو الشعور بوجود وحدة ماوراء طبيعية بين الائمة المتكاملين وبين الناس الذين يسيرون في طريق الكمال إلا أنهم قد يرتكبون بعض الذنوب والأخطاء احياناً [ليس في درجة الشرك والتجرؤ والمعاصي المهلكة الاخرى]. ويمكن ان نستشف هذا المعنى من الروايتين اللتين جاءتا في كتاب «الكافي» عن الامام الصادق عليه السلام:

«المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكىٰ شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح واحدة؛ وإنّ روح المؤمن لأشدّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[٢].

وخاطب الامام الصادق عليه السلام الناس قائلاً:

«ما لكم تسوؤن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أنّ أعمالكم تُعرض عليه فإذا رأىٰ فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤا رسول الله وسرّوه»[٣].

وهناك روايتان أخريان عن الامام الباقر والامام الصادق عليهما السلام تحملان نفس المضمون الذي تؤيده الآية الكريمة التالية:

---

١ ـ المخلوقات بأسرها من نوع «ممكن الوجود»، في حين ان الله تعالى «واجب الوجود».

٢ ـ الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ج ٢، ص ١٦٦ و ٢١٩ و ٢٢٠.

٣ ـ نفس المصدر، ج ١، ص ٢١٩.

«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون»[١].

وعلى هذا الاساس فإن دعاء المعصومين عليهم السلام واعترافهم بالخطأ والإعراب عن التأثر والندم، إنما يعبّر عن شعورهم بالألم للاعمال السيئة التي يرتكبها الناس؛ وطلبهم التوبة والمغفرة لهم.

٣٣ـ يا مَوْلايَ أنْتَ الَّذي مَنَنْتَ أنْتَ الَّذي أنْعَمْتَ أنْتَ الَّذي أحْسَنْتَ أنْتَ الَّذي أجْمَلْتَ أنْتَ الَّذي أفْضَلْتَ أنْتَ الَّذي أكْمَلْتَ أنْتَ الَّذي رَزَقْتَ أنْتَ الَّذي وَفَّقْتَ أنْتَ الَّذي أعْطَيْتَ أنْتَ الَّذي أغْنَيْتَ أنْتَ الَّذي أقْنَيْتَ أنْتَ الَّذي آوَيْتَ أنْتَ الَّذي كَفَيْتَ أنْتَ الَّذي هَدَيْتَ أنْتَ الَّذي عَصَمْتَ أنْتَ الَّذي سَتَرْتَ أنْتَ الَّذي غَفَرْتَ أنْتَ الَّذي أقَلْتَ أنْتَ الَّذي مَكَّنْتَ أنْتَ الَّذي أعْزَزْتَ أنْتَ الَّذي أعَنْتَ أنْتَ الَّذي عَضَدْتَ أنْتَ الَّذي أيَّدْتَ أنْتَ الَّذي نَصَرْتَ أنْتَ الَّذي شَفَيْتَ أنْتَ الَّذي عافَيْتَ أنْتَ الَّذي أكْرَمْتَ تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ دائِمًا وَلَكَ الشُّكْرُ واصِبًا أبدًا ثُمَّ أنَا يا إلهِيَ الْمُعْتَرِفُ بِذُنُوبي فَاغْفِرْها لي أنَا الَّذي أسَأْتُ أنَا الَّذي أخْطَأْتُ أنَا الَّذي هَمَمْتُ أنَا الَّذي جَهِلْتُ أنَا الَّذي غَفَلْتُ أنَا الَّذي سَهَوْتُ أنَا الَّذي اعْتَمَدْتُ أنَا الَّذي تَعَمَّدْتُ أنَا الَّذي وَعَدْتُ أنَا الَّذي أخْلَفْتُ أنَا الَّذي نَكَثْتُ أنَا الَّذي أقْرَرْتُ أنَا الَّذي اعْتَرَفْتُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَعِنْدي وَأبُوءُ بِذُنُوبي فَاغْفِرْها لي يامَنْ لا تَضُرُّهُ ذُنُوبُ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ طاعَتِهِمْ وَالْمُوَفِّقُ مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَرَحْمَتِهِ

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ١٠٥.

يامن نلجأ إليه في حاجاتنا
ها نحن ضللنا الطريق ثانية
كل يوم نقع في فخ جديد
حتّى ولو كان كلّ منّا بازاً أو عنقاء
رباه! مئات الألوف من الأفخاخ والحبوب
ونحن كالطيور نهمون وبؤساء «مولوي»

٣٤ـ فَلَكَ الْحَمْدُ إلهي وَسَيِّدي إلهي أمَرْتَني فَعَصَيْتُكَ وَنَهَيْتَني فَارْتَكَبْتُ نَهْيَكَ فَأَصْبَحْتُ لا ذا بَراءَةٍ لي فَأَعْتَذِرُ وَلا ذا قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرُ فَبِأَيِّ شَيءٍ أَسْتَقْبِلُكَ يا مَوْلايَ أَبِسَمْعي أمْ بِبَصَري أمْ بِلِساني أمْ بِيَدي أمْ بِرِجْلي أَلَيْسَ كُلُّها نِعَمَكَ عِنْدي وَبِكُلِّها عَصَيْتُكَ يا مَوْلايَ فَلَكَ الْحُجَّةُ وَالسَّبيلُ عَلَيَّ يا مَنْ سَتَرَني مِنَ الآباءِ وَالْأُمَّهاتِ أنْ يَزْجُرُوْني وَمِنَ الْعَشائِرِ وَالإخْوانِ أنْ يُعَيِّرُوْني وَمِنَ السَّلاطينِ أنْ يُعاقِبُوْني وَلَوِ اطَّلَعُوْا يا مَوْلايَ عَلى مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنّي إذاً ما أَنْظَرُوني وَلَرَفَضُوني وَقَطَعُوني فَها أنَا ذا يا إلهي بَيْنَ يَدَيْكَ يا سَيِّدي خاضِعٌ ذَليلٌ حَصيرٌ حَقيرٌ لا ذوُ بَراءَةٍ فَأَعْتَذِرُ وَلاذوُ قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرُ وَلا حُجَّةٍ فَأَحْتَجُّ بِها وَلا قائِلٌ لَمْ أجْتَرِحْ وَلَمْ أعْمَلْ سُوءًا وَما عَسَى الْجُحُوْدُ وَلَوْ جَحَدْتُ يا مَوْلايَ لايَنْفَعُني كَيْفَ وَأنّى ذلِكَ وَجَوارِحي كُلُّها شاهِدَةٌ عَلَيَّ بِما قَدْ عَمِلْتُ وَعَلِمْتُ يَقينًا غَيْرَ ذي شَكٍ أنَّكَ سائِلي مِنْ عَظائِمِ الأُمُوْرِ وَأنَّكَ الْحَكَمُ أَلْحَكيمُ الْعَدْلُ الَّذي لا تَجُورُ وَعَدْلُكَ

مُهْلِكِي وَمِنْ كُلِّ عَدْلِكَ مَهْرَبِي فَإِنْ تُعَذِّبْنِي ياإلهـي فَـبِذُنُوْبِي بَـعْدَ حُجَّتِكَ عَلَيَّ وَإِنْ تَعْفُ عَنِّي فَبِحِلْمِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِكَ

أشكرك وأحمدك ياسيدي ومولاي، إذْ أمرتني فعصيتُ أمرك، ونهيتني فارتكبتُ ما نهيتني عنه. فها أنا لا أستحق البراءة منك حتى أعتذر، وليست لديّ القوة كي أنتصر لها. فبأي وجه أقبلُ عليك؟

هل أُقبل عليك بسمعي، أم بعيني، أم بلساني، أم بيدي، أم برجلي؟ أليست كل هـذه الجوارح نعماً أنعمت بها عليّ ثم عصيتك بها جميعاً؟ مولاي لك الحجة وعندك السبيل لمؤاخذتي.

يارب عالم الوجود، لقد حجبتَ عيوبي ونقائصي عن آبائي وأمهاتي كي لا يؤذوني؛ وأخفيتها عن قبيلتي وإخواني كي لا يعيبوني؛ وعن الحكّام كي لا يعاقبوني. فلو وقـف هؤلاء يامولاي على ما تعرفه أنت عني، لما أمهلوني، ونبذوني وأداروا ظهورهم لي.

فيا سيدي ومولاي، وقفتُ بين يديك خاضعاً ذليلاً حقيراً لستُ أهلاً للبراءة فأطلب العفو، وليست لديّ القوة فأنتصر بها، ولا أملك الحجة والدليل كي أحـتج بـهما، وليس بإمكاني نكران معصيتي فأَدّعي أنني لم أقم بها. وما فـائدة مـثل هـذا الانكـار وكـافة جوارحي تشهد عليّ بمعصيتي. وأنا علىٰ يـقين أنك سـتسألني عـن عـظيم الحـوادث والأمور لأنك الحكم العادل الذي لا تظلم أبداً.

إلٰهي إني أعلم أنّ عدلك المحض سيقتصّ مني أنا الذي اقترفتُ كلّ هذه المعاصي. فها أنا مستجير من عدلك بعدلك الكلي الذي هو مصدر لطفك وكرمك.

أيها الحكم العدل، لو تعذّبني، فإنما تعذّبني بالذنوب التي ارتكبتها، ولو شطبت علىٰ ذنوبي بقلم كرمك ويد عفوك، فهذا ما يقتضيه حلمك وجودك.

٣٥ـ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُسْتَغْفِرينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُوَحِّدينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْخائِفينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْوَجِلينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الرّاجينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الرّاغِبينَ لاإلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُهَلِّلينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ السّائِلينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُسَبِّحينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُكَبِّرينَ لا إلهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ رَبّي وَرَبُّ آبائِي الأوَّلينَ

لا إله إلاّ أنت سبحانك اني من الظالمين.

لا إله إلاّ أنت إني من المستغفرين.

لا إله إلاّ أنت إني من الموحّدين.

لا إله إلاّ أنت إني خائف من غضبك.

لا إله إلاّ أنت إني وجلٌ من سطوتك

لا إله إلاّ أنت إني من الراجين لرحمتك.

لا إله إلاّ أنت إني من المشتاقين لرؤية جمالك وكمالك.

لا إله إلاّ أنت إني من المؤمنين بالتوحيد ووحدة الإله.

لا إله إلاّ أنت إني من المتضرعين بين يدي كبريائك.

لا إله إلاّ أنت إني من المسبِّحين بحمدك.

لا إله إلاّ أنت سبحانك إني من المكبّرين.

لا إله إلاّ أنت، أنت ربي ورب آبائيَ الأولين.

ان الامام الحسين عليه السلام سيد شهداء طريق الحق والحقيقة، كان يبثّ إلى الله تعالى ما يحمله قلبه من خلال تكرار عبارة «لا إله إلاّ أنت سبحانك» والتي كان يقولها بولع واصرار مؤكداً من خلالها على وحدانية الله وإبداعه وربوبيته.

فحينما يقول الإمام «إنّي كنت من المستغفرين»، فإنه يفضي بكل ما يحمله قلبه وما يؤمن به. وحينما يقول «إني كنت من الراغبين»، فإنّ موجاً من الشوق للشهود ينطلق من قلبه الرقيق ويتسامىٰ حتى الحضرة الربوبية. وإننا إذا ما لاحظنا تكراراً ظاهرياً للعبارات، إلاّ أنّ مفاهيمها أمواج تتلاحق وتحلّق نحو الأبدية.

٣٦ـ أللّٰهُمَّ هذا ثَنائي عَلَيْكَ مُمَجِّدًا وَإِخْلاصي لِذِكْرِكَ مُوَحِّدًا وَإِقْراري بِآلائِكَ مُعَدِّدًا وَإِنْ كُنْتُ مُقِرًّا أَنّي لَمْ أُحْصِها لِكَثْرَتِها وَسُبُوغِها وَتَظاهُرِها وَتَقادُمِها إِلىٰ حادِثٍ ما لَمْ تَزَلْ تَتَعَهَّدُني بِهِ مَعَها مُنْذُ خَلَقْتَني وَبَرَأْتَني مِنْ أَوَّلِ الْعُمْرِ مِنَ الإغْناءِ بَعْدَ الْفَقْرِ وَكَشْفِ الضُّرِّ وَتَسْبيبِ الْيُسْرِ وَدَفْعِ الْعُسْرِ وَتَفْريجِ الْكَرْبِ وَالْعافِيَةِ فِي الْبَدَنِ وَالسَّلامَةِ فِي الدّينِ وَلَوْ رَفَدَني عَلى قَدْرِ ذِكْرِ نِعْمَتِكَ جَميعُ الْعالَمينَ مِنَ الأَوَّلينَ وَالآخِرينَ ما قَدَرْتُ وَلا هُمْ عَلى ذلِكَ تَقَدَّسْتَ وَتَعالَيْتَ مِنْ رَبٍّ كَريمٍ عَظيمٍ رَحيمٍ لا تُحْصى آلاؤُكَ وَلا يُبْلَغُ ثَناؤُكَ وَلا تُكافى نَعْماؤُكَ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَتْمِمْ عَلَيْنا نِعَمَكَ وَأَسْعِدْنا بِطاعَتِكَ

سيد الشهداء، ومفخرة الموحدين، وإمام المتضرعين بين يدي الله، الحسين بن علي عليه السلام، يشهد مرة أخرىٰ بعبوديته لمعبود عالم الوجود المطلق ويدركها، وتستولي عليه في

ذلك الفضاء المقدس حالةٌ يدرك فيها نفسه الخالصة من خلال ارتباطها بخالق الكائنات الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، ويعترف بصراحة كاملة: لو أنّ كافة الناس ـ الاولين منهم والآخرين ـ انضموا إليه وساعد بعضهم البعض الآخر في بيان قيمة وحجم النعم الالهية المادية والمعنوية التي أغدقها الله عليهم، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

فلا سعادة إلا في طاعته.. نعم هذه هي الحقيقة. فأولئك الذين يرون السعادة في لذائذ الدنيا وادياتها، هم في الواقع أكثر الناس حرماناً من السعادة الحقيقية. فلو أوقفتَ هؤلاء أمام ضمائرهم للحظات، وسألتهم التخلي عن كافة تصوراتهم وأوهامهم وآمالهم المضبَّبة الملوثة، ثم الاجابة بضمير نقي خالص، فلا شك إنهم سيبدون أسفهم على السعادة التي أفلتت من أيديهم، ولنفثوا بآهة حرّىٰ من أعماق أفئدتهم. وياحبذا لو سألتهم بعد أن أوقفتهم أمام مرآة وجدانهم الصافية التي تعكس الحق:

أتعلمون ماهي انواع الغصص التي يجب أن يتجرعها المحرومون البعيدون أو القريبون، من أجل أن توفروا لأنفسكم وسائل اللهو واللعب واللذات؟ نعم:

عشرة ينامون بوجوه شاحبة وبطون جائعة
من أجل أن تلوّن وجهك بالخمر الأحمر «ناصر خسرو»

أتعلمون أنّ اي انصياع منكم للغرائز الحيوانية، يُصيب نشاطاتكم الذهنية بنوع من الركود؟

ولا شك أنكم ومثل باقي المطلعين على ذواتهم تعلمون أن هناك قانوناً للنفس الانسانية مثل قانون العالم الخارجي؛ إذاً بأي منطق يمكن أن نفسر ذلك الجزء من اللذائذ الذي يقف عقبة في طريق «الحياة والروح القانونية»؟

هل خطر ببالكم حتى اليوم أنّ اللذائذ النسبية المحدودة في عالم المحسوسات ليست لديها إمكانية إشباع الشعور والشوق إلى الكمال المطلق الذي لابد من السعي وتحمل المشاق وتقديم التضحيات من اجل الوصول اليه؟

وكلنا يعلم أن الحياة لايمكن أن يكون لها معنى بدون أن يجيب المرء على الاسئلة التالية:

١ـمن أنا؟ ٢ـمن أين أتيت؟ ٣ـإلىٰ أين أتيت؟ ٤ـمع من؟ ٥ـلماذا أتيت؟ ٦ـإلىٰ أين أذهب؟

فهل يمكن ان نشعر بالسعادة بدون العثور علىٰ إجابة لهذه الأسئلة، والتحرك علىٰ ضوء إجاباتها؟

هل حدث أن فكرتم للحظات في حالة الصحوة (لا في حالة السكر)، أننا حينما نتخذ من لذاتنا الشخصية هدفاً مطلقاً للحياة ونتقلّب في أحضان الملذات، فإن الملايين من الناس يعانون معاناة رهيبة من الحرمان الاقتصادي والقانوني والعلمي والثقافي والأخلاقي والسياسي، في حين يسجّل الحكام المتكبرون أسماء هؤلاء المحرومين البؤساء في سجل الاحياء. ورغم كل هذه الامور، هل لازلتم تعتقدون أنكم سعداء؟!

لا شك إنكم لا تفقهون معنى السعادة وتعيشون محرومين منها.

٣٧ـ سُبْحانَكَ لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ اللّهُمَّ إِنَّكَ تُجيبُ الْمُضْطَرَّ وَتَكْشِفُ السُّوءَ وَتُغيثُ الْمَكْرُوْبَ وَتَشْفِي السَّقيمَ وَتُغْنِي الْفَقيرَ وَتَجْبُرُ الْكَسيرَ وَتَرْحَمُ الصَّغيرَ وَتُعينُ الْكَبيرَ وَلَيْسَ دُوْنَكَ ظَهيرٌ وَلا فَوْقَكَ قَديرٌ وَأَنْتَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ يامُطْلِقَ الْمُكَبَّلِ الْأَسيرِ يارازِقَ الطِّفْلِ الصَّغيرِ ياعِصْمَةَ الْخائِفِ الْمُسْتَجيرِ يامَنْ لا شَريكَ لَهُ وَلا وَزيرَ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَعْطِني في هذِهِ الْعَشِيَّةِ أَفْضَلَ ماأَعْطَيْتَ وَأَنَلْتَ أَحَدًا مِنْ عِبادِكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُولِيها وَآلاءٍ تُجَدِّدُها وَبَلِيَّةٍ تَصْرِفُها وَكُرْبَةٍ تَكْشِفُها وَدَعْوَةٍ تَسْمَعُها وَحَسَنَةٍ تَتَقَبَّلُها وَسَيِّئَةٍ تَتَغَمَّدُها إِنَّكَ لَطيفٌ

بِما تَشاءُ خَبيرٌ وَعَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ اللّهُمَّ إِنَّكَ أَقْرَبُ مَنْ دُعِيَ وَأَسْرَعُ مَنْ أجابَ وَأَكْرَمُ مَنْ عَفا وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطى وَأَسْمَعُ مَنْ سُئِلَ يا رَحْمنَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَرَحيمَهُما لَيْسَ كَمِثْلِكَ مَسْؤُولٌ وَلا سِواكَ مَأمُولٌ دَعَوْتُكَ فَأَجَبْتَني وَسَأَلْتُكَ فَأَعْطَيْتَني وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فَرَحِمْتَني وَوَثِقْتُ بِكَ فَنَجَّيْتَني وَفَزِعْتُ إِلَيْكَ فَكَفَيْتَني اللّهُمَّ فَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَنَبِيِّكَ وَعَلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ أَجْمَعينَ وَتَمِّمْ لَنا نَعْماءَكَ وَهَنِّئْنا عَطاءَكَ وَاكْتُبْنا لَكَ شاكِرينَ لِآلائِكَ ذاكِرينَ آمينَ آمينَ رَبَّ الْعالَمينَ اللّهُمَّ يامَنْ مَلَكَ فَقَدَرَ وَقَدَرَ فَقَهَرَ وَعُصِيَ فَسَتَرَ وَاسْتُغْفِرَ فَغَفَرَ ياغايَةَ الطّالِبينَ الرّاغِبينَ وَمُنْتَهى أَمَلِ الرّاجينَ يامَنْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَوَسِعَ الْمُسْتَقيلينَ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَحِلْمًا

هذا الدعاء ـ وكما هو شأن بعض الآيات القرآنية والأدعية الأخرىٰ ـ ينسب نجاة الانسان من الاضطرار والسوء والكربات والسقم والفقر والهزيمة، الى الله سبحانه. ولابد علىٰ هذا الصعيد أن نطرح السؤال التالي:

هل ينجو المرء من الكرب والكوارث بواسطة التدخل الإلٰهي، أم هناك أسباب وعوامل أخرىٰ؟

والإجابة بسيطة للغاية، إذا علمنا أنّ الله تعالى هو الذي يضع العليّات في العلل والعوامل. بعبارة أخرى إن الله سبحانه هو الذي يسبب الاسباب والعلل، ويضع السببيّات والعليّات في هذه الاسباب والعلل، كما أنه هو الذي يحفظ العلاقات القائمة بين أجزاء القوانين المهيمنة على عالم الوجود. وهذا هو التفسير المقبول لماهية القوانين، والذي يمكن ان يكون التفسير النهائي لها إذا قُدِّم مرفقاً بتوضيح كامل.

وحبذا لو تمعنا في الابيات التالية:

يتطاير الشرر حينما تضرب حجراً على حديد
والقدم تتحرك بأمر الله
فلا تضرب حجر الظلم على حديد الظلم
فإنهما يلدان كالرجل والمرأة
فالحجر والحديد كانا سبباً
لكن انظر إلىٰ ماوراءهما أيها العاقل
فذلك السبب أحدث هذا السبب
وهل ينشأ السبب بلا مسبب؟
فذلك السبب يحرّك هذا السبب
وقد يشلّه عن الحركة ثانية
فالأسباب التي تقود الانبياء
إنما هي أعلىٰ من هذه الأسباب
فهذا السبب يُدْرَك بواسطة العقل
وتلك الأسباب العليا تُدْرَك عن طريق الانبياء
وماذا يسمى السبب بالعربية؟ قلْ:«رَسَن»
ويُستعمل هذا «الرسن» في البئر
وحركة دولاب هذا الرسن هي العلة
وتجاهل هذا الدولاب المحرك ذلة «مولوي»

٣٨ـ اللّهُمَّ إنّا نَتَوَجَّهُ إلَيْكَ في هذِهِ الْعَشِيَّةِ الَّتي شَرَّفْتَها وَعَظَّمْتَها بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ وَخِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ وَأَمينِكَ عَلى وَحْيِكَ الْبَشيرِ النَّذيرِ السِّراجِ الْمُنيرِ الَّذي أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمينَ وَجَعَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ اللّهُمَّ فَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَما مُحَمَّدٌ أَهْلٌ لِذلِكَ مِنْكَ يا عَظيمُ فَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ الْمُنْتَجَبينَ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ أَجْمَعينَ وَتَغَمَّدْنا بِعَفْوِكَ عَنّا فَإلَيْكَ عَجَّتِ الْأَصْواتُ بِصُنُوفِ اللُّغاتِ فَاجْعَلْ لَنا اللّهُمَّ في هذِهِ الْعَشِيَّةِ نَصيبًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ تَقْسِمُهُ بَيْنَ عِبادِكَ وَنورٍ تَهْدي بِهِ وَرَحْمَةٍ تَنْشُرُها وَبَرَكَةٍ تُنْزِلُها وَعافِيَةٍ تُجَلِّلُها ورِزْقٍ تَبْسُطُهُ ياأَرْحَمَ الرّاحِمينَ اللّهُمَّ أَقْلِبْنا في هذَا الْوَقْتِ مُنْجِحينَ مُفْلِحينَ مَبْرُورينَ غانِمينَ وَلا تَجْعَلْنا مِنَ الْقانِطينَ وَلا تُخْلِنا مِنْ رَحْمَتِكَ وَلا تَحْرِمْنا ما نُؤَمِّلُهُ مِنْ فَضْلِكَ وَلا تَجْعَلْنا مِنْ رَحْمَتِكَ مَحْرُومينَ وَلالِفَضْلِ مانُؤَمِّلُهُ مِنْ عَطائِكَ قانِطينَ وَلا تَرُدَّنا خائِبينَ وَلا مِنْ بابِكَ مَطْرُودينَ يا أَجْوَدَ الْأَجْوَدينَ وَأَكْرَمَ الْأَكْرَمينَ إلَيْكَ أَقْبَلْنا مُوقِنينَ وَلِبَيْتِكَ الْحَرامِ آمّينَ قاصِدينَ فَأَعِنّا عَلى مَناسِكِنا وَأَكْمِلْ لَنا حَجَّنا وَاعْفُ عَنّا وَعافِنا فَقَدْ مَدَدْنا إلَيْكَ أَيْدِيَنا فَهِيَ بِذِلَّةِ الاِعْتِرافِ مَوْسُومَةٌ

طالما استجار سيد شهداء طريق العدل والحق والقيم الانسانية العليا في هذا الدعاء بالله من اليأس والقنوط، وآحتمىٰ بعفوه وكرمه ولطفه وإحسانه واستمسك به.

فهذا الامام الكبير، والمطيع الحقيقي لله جلت عظمته، وشهيد عزة الناس وعظمتهم وتحريرهم من أغلال الظلم والجور وعبادة الأصنام الداخلية والخارجية، يقدم الى

هؤلاء الناس في هذا الدعاء ربّاً لايدع لهم ذريعة أو عذراً في الابتعاد عنه وعدم الحضور بين يديه. وهذان: القرب، والحقيقة البنّاءة التي تؤكد أن الله تعالىٰ ومع كلّ مـالديه مـن عظمة وكبرياء قد كرّم عباده بـمجاورته «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم»[1]، يستدعيان ايـصال الناس في هذه الحياة الى مرحلة استحقاق الخلافة الإلٰهية.

الحبيب أقرب مني إلىٰ نفسي
والعجيب أنني بعيد عنه
ما العمل؟ ولمن أقول
إنّه إلىٰ جانبي وأنا محروم منه «منسوب الى سعدي»

ومن مجموع المصادر الاسلامية والادراكات العقلية والوجدانـية، نـصل الى هـذه النتيجة، وهي: إن القهر أو الغضب الإلٰهي معلول لعلل وعوامل يسـببها النـاس أنـفسهم كالأخطاء والذنوب والظلم والاعتداء والبعد عن الله وغيرها. وبعبارة اخرى إن الاعمال والممارسات غير اللائقة التي يمارسها الناس، تشكل مصدر تفجر للقهر والغضب الالهي، لأن الغضب ليس صفة ذاتية لله تعالى، في حين أن العفو والرأفة والرحمة والكرم واللطف والجود والاحسان ليس لها من مصدر سوى ذاته الالهـية الحكـيمة الفـياضة العـادلة. ويمكن تفسير عبارة «سبقت رحمته غضبه» الواردة في المصادر الاسلامية بهذا المعنى. هذا في حين لم نجد في اي مصدر ما يشير الى تقدم غضب الله على شيء، بينما يتحدث سبحانه عن شمول رحمته لكل شيء «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً»[2].

٣٩ـ أللّهُمَّ فَأَعْطِنا في هذِهِ الْعَشِيَّةِ ما سَأَلْناكَ وَاكْفِنا مَااسْتَكْفَيْناكَ فَلا كافِيَ لَنا سِواكَ وَلا رَبَّ لَنا غَيْرُكَ نافِذٌ فينا حُكْمُكَ مُـحيطٌ بِـنا

١ ـ سورة الحديد، الآية ٤. ٢ ـ سورة غافر، الآية ٧.

عِلْمُكَ عَدْلٌ فينا قَضاؤُكَ إقْضِ لَنَا الْخَيْرَ وَاجْعَلْنا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ اللّهُمَّ أَوْجِبْ لَنا بِجوُدِكَ عَظيمَ ألأجْرِ وَكَريمَ الذُّخْرِ وَدَوامَ الْيُسْرِ وَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا أجْمَعينَ وَلا تُهْلِكْنا مَعَ الْهالِكينَ وَلا تَصْرِفْ عَنّا رَأْفَتَكَ وَرَحْمَتَكَ يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ اللّهُمَّ اجْعَلْنا في هذَا الْوَقْتِ مِمَّنْ سَألَكَ فَأَعْطَيْتَهُ وَشَكَرَكَ فَزِدْتَهُ وَتابَ إلَيْكَ فَقَبِلْتَهُ وَتَنَصَّلَ إلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِهِ كُلِّها فَغَفَرْتَها لَهُ يا ذَاالْجَلالِ وَالإكْرامِ ألّلهُمَّ وَنَقِّنا وَسَدِّدْنا وَاقْبَلْ تَضَرُّعَنا يا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ وَيا أرْحَمَ مَنِ اسْتُرْحِمَ يا مَنْ لا يَخْفى عَلَيْهِ إغْماضُ الجُفُونِ وَلا لَحْظُ الْعُيُونِ وَلا مَا اسْتَقَرَّ فِي الْمَكْنُونِ وَلا مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مُضْمَراتُ الْقُلُوبِ ألا كُلُّ ذلِكَ قَدْ أحْصاهُ عِلْمُكَ وَوَسِعَهُ حِلْمُكَ

ربّاه! في هذه اللحظات التي يشرف فيها النهار على نهايته، اقض لنا كلّ ما سألناه منك، واكفنا كلّ ما طلبنا كفايته منك، لأنه ليس لدينا من يكفينا غيرك ولا ربّ سواك.

إن حكمك فينا نافذ، وعلمك محيط بنا، وقضاءك عدل محض. فاكتب لنا الخير والكرامة بقلم قضائك، واجعلنا من اهل الخير.

ربّاه! إنا نسألك بجودك وكرمك الإلهي أن تكتب لنا الأجر العظيم، وذخيرة الكرامة، وتيسير الأعمال، وأنْ تغفر لنا جميع ذنوبنا وخطايانا وآثامنا، ولا تجعلنا من الهالكين.

يا أرحم الراحمين، لا تصرف عنا الرأفة والرحمة اللتين حبوتنا بهما، اللهم واجعلنا في هذه الساعة من تلك الفئة التي أغدقت عليها رحمتك، والتي إن سألتك اعطيتها، وإن شكرتك زدتها، وإن تابت من الذنوب التي اقترفتها غفرت لها ذنوبها كافة.

يا ربّ، ياذا الجلال والعظمة، وفّقنا وأيّدنا لكافة الاعمال الحسنة التي ترضاها، واقبل

تضرعاتنا وتأوهاتنا يا خير مَنْ يُسأل، ويا أرحم من تُطلَب منه الرحمة.

اللهم يا أيها العالم المطلق الذي لا تخفىٰ عليه حركات الأجفان ولحظ العيون، ولا يغيب عنه ما غاب واستتر وما يخطر في قلوب الناس وضمائرهم. فكل هذه المخفيات والمكنونات مكشوفة لديك وظاهرة اليك، وقد أحاط بها حلمك وشملها علمك.

٤٠ـ سُبْحانَكَ وَتَعالَيْتَ عَمّا يَقُولُ الظّالِمُونَ عُلُوًّا كَبيرًا تُسَبِّحُ لَكَ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ وَمَنْ فيهِنَّ وَإنْ مِنْ شَيْءٍ إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ فَلَكَ الْحَمْدُ وَالْمجْدُ وَعُلُوُّ الْجَدِّ يا ذَالْجَلالِ وَالْإكْرامِ وَالْفَضْلِ وَالْإنْعامِ وَالْأيادِي الْجِسامِ وَأنْتَ الْجَوادُ الْكَريمُ الرَّؤُفُ الرَّحيمُ أللّهُمَّ أوْسِعْ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ الْحَلالِ وَعافِني في بَدَني وَديني وَآمِنْ خَوْفي وَأعْتِقْ رَقَبَتي مِنَ النّارِ أللّهُمَّ لا تَمْكُرْ بي وَلا تَسْتَدْرِجْني وَلا تَخْدَعْني وَادْرَأْ عَنّي شَرَّ فَسَقَةِ الْجِنِّ وَالْإنْسِ

في هذه الفقرات من الدعاء يسأل الامام الحسين عليه السلام ربه الرزق الحلال، والسعة في العيش؛ أُسوةً بجده رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يدعو الله قائلاً:

«اللهم بارك لنا في الخبز، فإنه لولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدينا فرائض ربنا»[1].

والآيات والأحاديث الشريفة تؤكد باستمرار على ضرورة تنظيم العيش والمعاش.

أَلا يجب ان تستلم الحياة الطبيعية رزقها أولاً ثم الحياة الروحية؟ وهناك عبارة مهمة للغاية وردت ضمن الفقرات السابقة لابد من تفسيرها وهي «ولا تستدرجني». فالبشرية الراهنة حينما تصاب بجنون العظمة والغطرسة، فإن أول الأضرار التي تلحقها بنفسها

١ـ الفروع من الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ج ٥، ص ٧٣.

والتي لا يمكن تلافيها هو الشعور بالانفلات من المبادئ والقيم كافة، وما يترتب عليه من نزعة نحو الخواء والعبثية.

والشعور بالانفلات والنزعة نحو العبثية، هما في الظاهر معلولان لعلة واحدة، غير أنّ العبثية معلولة الشعور بالانفلات، والشعور بالانفلات ناجم عن الغرور الذي لابد وأن يؤدي الى تدمير الحياة بوسائل الحياة نفسها.

ويرفع فلذة كبد علي بن ابي طالب عليه السلام طرفه الى السماء، والدموع تنهمر من عينيه المباركتين، ويدعو بصوت عال:

٤١- ياأَسْمَعَ السّامِعينَ ياأَبْصَرَ النّاظِرينَ وَياأَسْرَعَ الْحاسِبينَ وَياأَرْحَمَ الرّاحِمينَ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ السّادَةِ الْمَيامينَ وَأَسْأَلُكَ اللّهُمَّ حاجَتِي الَّتي إِنْ أَعْطَيْتَنيها لَمْ يَضُرَّني ما مَنَعْتَني وَإِنْ مَنَعْتَنيها لَمْ يَنْفَعْني ما أَعْطَيْتَني أَسْأَلُكَ فِكاكَ رَقَبَتي مِنَ النّارِ لاإِلهَ إِلاّ أَنْتَ وَحْدَكَ لا شَريكَ لَكَ، لَكَ الْمُلْكُ وَلَكَ الْحَمْدُ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ يارَبِّ، يارَبِّ، يارَبِّ

لقد تكرر هذا الدعاء كثيراً.

٤٢- إِلهي أَنَا الْفَقيرُ في غِنايَ فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقيراً في فَقْري؟

إلٰهي! إنّ شخصيتنا الانسانية، وكينونتنا، ومهما أظهرت من الاستقلال والعصامية، إلا أنّ مواد إنشائها مأخوذة من عالم الطبيعة. وتملأ وجودنا معلولات هي بحاجة الى عوامل كثيرة ليست تحت تصرفنا. كما أنّ هناك الكثير من العلل والأسباب غير المحسوبة التي تبرهن لنا على نقصنا الوجودي. اللهم فامنحنا ذلك الإستقلال الروحي الذي يحول دون

انخداعنا بأحابيل الغافلين.

فهؤلاء الغافلون يُنْشدون إلينا النصح بأنْ نحيا في هذا العالم دون البحث عن حامٍ وداعم، إلا أننا مهما أقنعنا أنفسنا بالاستغناء عن الداعم، فليس بامكاننا أبداً تحطيم سلسلة المبادئ والقوانين الطبيعية عن أرجلنا وأيدينا.

ولو عاد هؤلاء أصحاب النظرة القصيرة إلىٰ أنفسهم، ولو كبحت شخصيتهم الانسانية جموح غرائزها الحيوانية قليلاً، لأدركت أنّ مراد الباحثين عن الله والذاكرين له سبحانه، ليس أن نصمّ آذاننا، ونغمض أعيننا، ونشل حركتنا، ثم ندعوا الله الكبير: أي ربّاهُ! امنحنا السمع والبصر والجوارح السليمة.

الا تُعَدّ الشهوانية وعدم السعي في طريق تعزيز الحياة محاربة لله تعالى؟ فنحن نخاطب مقامه الشامخ قائلين: أيها الرب العظيم الذي وهبت لنا قوة السعي والحركة في الحياة، وفقنا للعمل من أجل تعزيز هذه القوة، كي نحقق أهداف هذه الحياة العابرة من خلال توثيق العلاقة بين عبوديتنا ومقامك الشامخ.

ولو انطلق هذا الدعاء من أعماق روحنا، فاننا نكون في الحقيقة قد نلنا اهدافنا الأساسية، أي ارتفعنا بنفس المقدار من حيث قوة الحيوية ونضج أهدافنا في الحياة

وهذا هو معنى الحاجة التي نستشعرها كل لحظة في كافة ذرات وجودنا. ربّنا! نحن نتجه اليك كي تبدّل كلّ لحظة من لحظات فقرنا إلىٰ غنىً، من خلال الاتصال بك.

٤٣- إلهي أنَا الْجاهِلُ في عِلْمي فَكَيْفَ لا أكُونُ جَهُولاً في جَهْلي؟

إلٰهنا! نحن نريد أن نعلم، غير أن نسبية العلوم وضيق أفقها يحولان دون أنْ تكون لدينا معرفة كافية تماماً؛ ولهذا لايمكن أن نكون علىٰ تماس مطلق بالحقائق. فنحن بني الانسان سذّج في التعليم، ونتصف بسرعة التصديق. ولهذا نفترض ـ بايحاء من تلك

السذاجة ـ الضوء الممتزج بالظلام نوراً مطلقاً، رغم أننا قد لعبنا دوراً في إيجاده. والأسوأ من ذلك كله أن نأمر الآخرين أو نشير عليهم على الأقل قائلين: انظروا انتم ايضاً في هذا النور المطلق!!!

ولو افترضنا اننا وقفنا على تفاصيل النظام السابق والمستقبلي للبشرية وعالم الوجود، فهل يمكن ان نفهم حقيقة المشيئة الربانية الجارية؟ ابداً، فلسنا نجهل حقائق عالم الوجود كافة فحسب، بل ولا يمكن ان نحصل على معلومات دقيقة عن مصير ذرة لا وزن لها. فلو كانت لدينا مثل هذه القابلية لكنا قد عرفنا كل الكون. إنه اعتراف مرٌّ ولاشك، لكن ماالعمل اذا كانت هذه هي الحقيقة؟

فنحن ما أن نعترف بجهلنا، ونطرد الأهواء والتلوثات النفسية عن معرفتنا القليلة، حتى ندرك أن هذه المعرفة متصلة ببحر علمك أيها الرب العليم.

ربّاه! إنّ نشيدنا الأبدي هو:

قطرة العلم التي وهبتها من قبل

أوصلها ببحارك «مولوي»

٤٤ـ إلهي إنَّ أختِلافَ تَدْبيرِكَ وَسُرْعَةَ طَواءِ مَقاديرِكَ مَنَعا عِبادَكَ ألْعارِفينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إلى عَطاءٍ وَالْيَأْسِ مِنْكَ في بَلاءٍ.

ربنا العزيز!

اننا نعلم اَنّ:

العالم يتجدد في كل لحظة

ونحن نجهل التجدد طوال حياتنا

والعمر كالنهر يتجدد باستمرار

لكنه يبدو ثابتاً في الجسد «مولوي»

ونحن ندرك أنّ:

العالم كلٌّ، وفي كل طرفة عين
يتحوّلُ إلىٰ عَدَمٍ ولا يبقىٰ زمانان
ثم يظهر عالم جديد ثانية
وتظهر في كل لحظة ارض وسماء جديدة «الشيخ محمود الشبستري»

ومن الواضح لنا ايضاً ان التجدد والتنوع السريع في علاقة الانسان بالانسان لا ينسجم مع الاطمئنان الى بقاء الوضع القائم. فالعوامل التي ليست في الحسبان تتدفق باتجاهنا بالشكل الذي يبدو وكأنّ مصيراً جديداً بانتظارنا في كل لحظة. وفي ظل هذه الاحوال نتذكرك وندرك موقعنا بين الكائنات، وحينئذ نترنم بهذه الحقيقة التي إيّاها علّمتنا:

«وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً إلاَّ أنْ يَشَاءَ الله»[1].

٤٥ـ إلهي مِنّي ما يَليقُ بِلُؤْمي وَمِنْكَ ما يَليقُ بِكَرَمِكَ

اذا كنتُ بلا فنٍ ولا عقل
فالله يشتريني بجهلي

ان شؤون وخصائص كل كائن تعتمد اعتماداً كاملاً على طبيعة كيان وجوده. فالمرء ومهما حاول ان يُظهِر نفسه كاملاً مستقلاً وغنيّاً، إلا أنّ إمارات النقص والعوز التي تملأ وجوده من الوضوح بحيث لا ينجح في خداع نفسه.

إلٰهنا الغنيّ! إنّ وجودي أستمدّه منك. فأنا لم أخلق نفسي ولا أشرف على عالم الوجود، جئت مجبراً وسأذهب مجبراً، وقواي المحدودة لا تسمح بنشاطات غير

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٢٣.

محدودة، وضياء وجودي يمكنه ان يُبدي من المقاومة أمام زوبعة الزوال والفناء المرعبة ما يبديه ذلك المصباح الخافت أمام العاصفة الصحراوية المدمرة.

٤٦ـ إلهي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأفَةِ لي قَبْلَ وُجوُدِ ضَعْفي أفَتَمْنَعُني مِنْهُما بَعْدَ وُجوُدِ ضَعْفي؟

إلٰهي إذا أخذتَ ما أعطيتَ فمن الذي يطالبُكَ؟
وهل يقاوم الرسمُ الرسّامَ؟
لا تنظر إلىٰ باطننا ولا إلينا
بلِ انظر إلىٰ كرمك وسخائك
لم نكن نحن وما كان طلبنا
وإنما لطفك يسمع مالم نتفوه به «مولوي»

ربنا العزيز! أنت على علم بحاجاتنا الغريزية والنفسية قبل أن تضيء مصباح الوجود في ظلام العدم، وقبل أن تصنع المادة وتنفخ فيها الحركة.

أنت تعلم أن الهواء ضروري للتنفس، وأنّ التوالد والتناسل بحاجة إلى الشعور باللذة في مقدماته.

نعم:
الله الذي خلق المعشوق
كان يرىٰ منذ البداية مصير العاشق
لهذا ليس أمامنا أي مجال للاعتراض.

علينا أنْ نبادر للعمل والمثابرة، لأنك ياربِّ أوجدت فينا الحاجة إلى العمل والسعي وتسلق قمم التكامل السامقة. كما أن الاستسلام لمقتضياتنا الروحية والمادية معناه الوصول إلىٰ أسمىٰ قوى الحياة الأصيلة.

إذا أمكن وضع الرأس على عتبة الحبيب
يمكن حينئذ إطلاق هتاف الشموخ في السماء «حافظ»

٤٧- إلهي إنْ ظَهَرَتِ ٱلمحاسِنُ مِنّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ ٱلمِنَّةُ عَلَيَّ وَإنْ ظَهَرَتِ ٱلمساوئُ مِنّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ ٱلحُجَّةُ عَلَيَّ

إلهي! أنتَ الذي أوجدتَ فينا الغرائز النفسية والتعقّل والوجدان، وطلبت منا أن نهذّبها ونقوّمها. وإذا مااستخدمنا ـ خلال نشاطاتنا الحياتية ـ مختلف الوسائل النفسية بشكل منطقي وقمنا بأعمال إيجابية، فإنما كان ذلك بفضل نصحك وإرشادك. فأنت الذي بعثت من العالم العلوي أئمة مافوق الطبيعة من أجل إيصالنا إلى الكمال، ثم شجّعتنا وحرضتنا على الحركة إليك من خلال دلالتك على عالم الوجود العظيم. ولهذا فأنت صاحب الدور الاكبر في ظهور محاسننا.

أما إذا نزعنا نحو المساوئ والقبائح، فإن كافة هذه المساوئ والقبائح منّا، لأنك قد وهبت لنا العقل والضمير، وبلّغتنا التعاليم والأوامر. كما أنّ محاسبتك لنا عن هذه المساوئ والمفاسد، منطلقة من عدلك.

فمدّ يارب أذرع عنايتك نحو هذه الحفنة التافهة من التراب واستنقذها من مأزقها النفسي.

٤٨ـ إلهي كَيْفَ تَكِلُني وَقَدْ تَكَفَّلْتَ لي وَكَيْفَ أُضامُ وَأَنْتَ النّاصِرُ لي أمْ كَيْفَ أَخيبُ وَأَنْتَ ٱلحَفِيُّ بي؟

ربّاهُ! القوانين الجارية لحفظ وجودنا، إنما هي في قبضة قدرتك، والقوة المنسِّقة بين الأفعال وردود الأفعال، إنما هي قوتك، ومصابيح الضمير الملكوتية إنما هي مّتقدة

بنفحاتك الربّانية.

ربّاهُ! إنّ عالم الوجود بأسره يدعونا إلى الاستعداد والحذر.. اذاً كيف يحق لنا أن نقول إنك وكلتنا إلى أنفسنا؟!

لاشك إن ضرورات حياتنا تنطلق من الغاية المبهمة التي تصنعها الحوادث الطبيعية والصناعية، وأننا ننتشل حياتنا من بين المئات من عوامل الموت. فهل نحن الذين نقاتل وننتصر على العوامل الأقوى منّا والتي لم تكن على الأغلب في حسباننا أو خارجة كليّاً عن إرادتنا؟

أبداً، فنحن لا نملك مثل هذه القوة. فاليد القوية هذه، إنما هي يدك والتي تمسح بها كلّ لحظة علىٰ رؤوسنا، وتحفظ هٰذا القفص الترابي والوكر الارضي من عوامل التدمير والتقويض. فعيون رحمتك تحرسنا في كل لحظة، ولهذا لا يلحق الظلم بنا.

ربّاهُ! لستَ بحاجة الى خلقنا، وليس في خلقتنا مجهول عندك، ولهذا لا يمكن أنْ يلحق بنا أيّ ظلم من جانبك أبداً. ولماذا نيأس وأنت الرحيم الذي ألقيتَ ظلّ عنايتك فوق رؤوسنا؟

عنايتك الواسعة، وحنانك الكبير، ليسا أجراً ومكافأة لأعمالنا، فأعمالنا لا تستحق كلّ هذه العناية والحنان.

اللهم أنت ربّنا وحبك الربوبي لايريد منّا شيئاً سوى تكاملنا. كما أنّ المعاصي التي ارتكبتها ـ ومهما كان حجمها ـ لم تكن تجرّؤاً منّي على مقام ربوبيتك الشامخ. فما صدر مني من نقض للعقود وتمرد عليك، لايعني أنني أجد في نفسي القدرة علىٰ مجابهتك. أبداً، فأنا أعلم بكافة هذه الانتهاكات. وأرفع إليك خجلي ـ الذي هو اعتذاري الطبيعي ـ كآخر وسيلة أتقرب بها إليك.

ربّاهُ! هل هناك أحدٌ أقوىٰ منك وأعظم بإمكانه أن يهزمني؟ كلا، ولهذا لن أيأس أو أخيب أبداً.

٤٩ـ ربّي ها أنَا أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بِفَقْري إلَيْكَ وَكَيْفَ أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بِما هُوَ مَحالٌ أنْ يَصِلَ إلَيْكَ؟

ربّاه! عندما أدقّق جيداً، أجد السببية كلّها منك، وأنّ عوامل عالم الطبيعة كافة تستمد خواصها وفعالياتها منك. انها لا تملك الاستقلال أبداً وأنّ ووجودها مرهون بـإبداعك. فإذا كانت إنساناً، وإذا كانت محتاجة، فليس بإمكانها عمل أي شيء، وإذا كـانت غـير محتاجة:

«فالأغنىٰ أكثر احتياج».

واذا كانت كائنات طبيعية، فلا يوجد في عالم الطبيعة شيء قائم بذاته، وإنما كلّ شيء يستمدّ حركته وخصائصه منك، إذاً:

السحاب الجاف الذي لا يحمل الماء

لا يتصف بصفة إعطاء الماء

والذات التي ليس لديهانصيب من الوجود

هل بإمكانها ان تهب الوجود؟

٥٠ـ أمْ كَيْفَ أشْكُو إلَيْكَ حالي وَهُوَ لا يَخْفى عَلَيْكَ؟

أعْرِفُ فئةً من الأولياء

أفواهها مغلقة من الدعاء

ربّاه! حين أشاهد صمت عالم الطبيعة المثير؛ وحين أدرك أنّ المـجرات والأجـرام العظيمة تسير بسرعة هائلة وهادئة هدوءاً مذهلاً في غنى عن إدراكنا نحن الناس؛ وحين أشاهد نمو الزهور الغضة في سفح الجبل ـوالتي تستعرض تجليها القصير فـي مـوضع تجلي الحكمة الإلٰهية ـ صامتة خرساء لا يُسمع منها حتى صـوت نسـائم الربـيع التـي

تداعبها؛

أود حينئذ لو أكون جزءاً من الطبيعة وأُفضي إليك بأسرار قلبي بصمت. إلهي! إنـي أستشعر إحاطة علمك بمكنونات نفسي، لهذا أرى أن التجاهر بما يجري في نفسي نوعاً من الوقاحة.

حيّرني نور جمالك وجلالك وأدهشني، حتّىٰ لم أنسَ لساني وشفتي فحسب، بل ونسيت نفسي ايضاً، مما جعلني أسير إيقاعك الأزلي اللامتناهي.

ألا إنّ روعة صمت هذه الطبيعة الواسعة التي تسير نحوك منقادة بكافة ظواهرها وآياتها، تدفعني إلى التمتمة فيمتزج صوتي الضعيف مع أجراس قافلة النور.

وفي هذه الحالة، أشعر فجأة أنني أخذت أتحدث، أتحدث وأتحدث، لكن هناك نوعاً من المقاومة الداخلية يريد أن يحطم هذه الألفاظ في فمي، لأنّ هذه الأجسام الضعيفة ـ اي هذه الألفاظ البسيطة التافهة التي هي من إنشائنا ـ تضغط علىٰ تلك الحقائق التي تتحرك كالموج في نفسي وبدون تكرار، وتشوش عليها، مما يضطرني إلى اللجوء لملجأ الصمت. ثم أدرك من بعد أنني قد أزحت جِرار الالفاظ التافهة جانباً وغمرني بحر من النور.

أيها الربّ الكبيرّ
الطريق منبسط وتحته أفخاخ
والأسماء تعاني من ضعف المعاني
الألفاظ والأسماء كالأفخاخ
والكلمة الحلوة حصاة مياه العمر

٥١ـ أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ بِمَقالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزٌ إِلَيْكَ

أودّ التحدث معك، أريد أن أُدعوك، إلاّ أنّ قدرتي على الدعاء، وقابليتي على التعبير

مستمدتان منك. واستشفاف هذه الحقيقة يجرني إلى الصمت ثانية، ولم أعد قادراً على انتزاع كلام أفضي به إليك. إلا أنّ عبارة أيّاها علمتنا يمكن أن تهدئ من اضطرابي وقلقي، ألا وهي: «لاحول ولا قوة إلاّ بالله».

٥٢ـ أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمالي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ

ربّاه!

آمال مزايا العالم المادي تجرني الى منحدر السقوط، وحب الجاه والمقام والثروة والشخصية الدنيوية يلوث فطرتي، وآمالي المعنوية الوافدة عليك تجرني إليك. وما وفد عليك من هذه الآمال ليس سوىٰ شعاع من شمس عظمتك أودعت مسببه في فطرتي.

وحينما يعود هذا الشعاع اليك، لابد أن يبحث عن مركزه الأصلي. وليس له حينئذ من عودة.

٥٣ـ أَمْ كَيْفَ لا تُحْسِنُ أَحْوالي وَبِكَ قامَتْ؟

أليس ذلك الجانب من الـ «انا»، شعاع من بحر الأبدية متصل بجمالك وجلالك؟ فيجب أن تكون شؤوني وأحوالي المتصلة بذلك الجانب جميلة ورائعة، لأنّ حنانك وحبك اللامتناهي لن يترك شفاه روحي جافة الى جانب ينبوع البقاء.

والـ «أنا الطبيعية»، مثل تلك الدودة التافهة التي تمضي حياتها بين الرمال او تحت ورقة في غصن شجرة، وترى تفتح نباتات شجرة الوجود وأزهارها، وترىٰ ذبولها وجفافها، وليس بمقدورها ان تنسب تلك التحولات الى قوة خارج ذلك المحيط المحدود، نظراً لضعف حواسها وإدراكاتها القصيرة الغامضة. إنها لا ترى البستاني ولا تبصر الماء ولا تدرك السحاب، ولا تفهم ماذا تعني البذرة والجذور وأشعة الشمس والنسائم المنعشة وعشرات العناصر المؤثرة في ذلك التحول.

متى تفهم البعوضة لمن هذا البستان

وهي تولد في الربيع وتموت في الشتاء «مولوي»

فالمستوى العميق من الـ«انا» ـاي المجاور لروح الله ـيهمس في أذن «انا الطبيعية» قائلاً: أنتِ علىٰ خطأ، على غير هدى، فعالم الوجود الذي أنتِ جزء منه، له أصول ونتائج، وله أسس وقواعد تُشاد عليها هذه العلاقات والتحولات. فيا أيتها الدودة التافهة، إن لهذا البستان الواسع بستانياً لايسمح بدخول العوامل غير المرغوب فيها، وينقل الماء إلى الأزهار والأشجار التي صنعتِ لنفسكِ فيها عالماً مستقلاً. فعودي إلىٰ رشدك لحظة، وحينئذ ستقولين:

أنت مثل تلك الذبابة
التي تصورت نفسها شيئاً
وأسكرها خمر الغرور
وَعَدَّتْ نفسها شمساً وهي ذرّة
سمعتْ وصف البازات في عصرها
فقالت لاشك إنني عنقاء دهري
وحينما حطّتْ على قشة عائمة في بول حمار
رفعتْ رأسها بشموخ متصورة انها ربّان سفينة!
وقالت انني درستُ علم البحر والملاحة
وأمضيتُ في ذلك ردحاً من الزمن
فها هو البحر وها هي السفينة
وأنا رجل البحر والرأي والفن!
فكان لديها تصور يفوق الحد:
إنها تقود سفينة في عباب البحر!

وهذا القليل من الوعي كاف لأن يلفت أنظارنا إلى أنّ كافة لحظات حياتنا مستمدة منه، والتفكير بالاستقلال والانفصال عنه سوف لن يكون له أية نتيجة سوى أنه يمنعنا من التعقل الصحيح، بالضبط كما كان الأمر بالنسبة للذبابة.

ربّاه! إننا بهذا الالتفات، نسبح في بحر من لذتك الملكوتية، ونتحمل آلام الحياة وعنادها المفروض.

٥٤ـ إلهي ما أَلْطَفَكَ بي مَعَ عَظيمِ جَهْلي وَما أَرْحَمَكَ بي مَعَ قَبيحِ فِعْلي؟

جهلنا بكياننا من جهة، وجهلنا بعظمتك ولطفك من جهة أخرى، لن يحولا دون حركة ألطافك العامة أبداً. وكيف بإمكاننا أن ندرك هطول فيضك العظيم في كل لحظة على كافة الكائنات بما فيها الانسان؟ إننا سجناء قوانين الطبيعة، ومن العسير علينا أن نفهم الأحداث الأساسية التي تجري في عالم الكون والعدم.

إننا فتحنا أعيننا على العالم ونشاهد باستمرار سطوع نور الوجود على أبواب الموجودات والكائنات كافة وعلىٰ جدرانها. فنحن ذلك الزجاج الشفاف الذي يخترقه الضوء باستمرار، في حين يتصور أن ذلك الضوء منه!

ربّاهُ! وضعتَ أرواحنا في مخبأ صغير يُدعَى البدن، لكننا مثل تلك الدودة الصغيرة التي ترىٰ كافة وجودها من صنع بيت تافه على غصن شجرة، ولا تفهم أن تلك الشجرة تتغذىٰ من الماء بواسطة جذورها الكامنة في الارض، وأنّ حياة هذه الشجرة ـ من اكبر غصن فيها وحتى اصغر ورقة ـ مستمدة من ذلك الماء. فالماء هو اساس حياة تلك الدودة، إلا أنها لا تعير أدني اكتراث لا للبستاني ولا إلى طبيعة عمله وحجمه.

اما تلك الزجاجة، فإنها سواء أدركت أنّ الضوء الساطع ـ الذي منحها الشفافية ـ ينبعث من مصدر آخر أو لم تدرك، فإن ذلك الضوء سيظل يسطع ويشع عليها. كما أنّ تلك

الدودة الصغيرة سواء علمت أنّ حياتها ووجودها يعتمد علـى المـاء والتـراب وجـهود البستاني أم لم تعلم، فإن ذلك البستاني سيستمر في عمله وسعيه، وأنّ الماء سيصل من جذور الشجرة الى أعلى أغصانها وأصغر أوراقها.

ايها الرب اللطيف!

إننا نعود إلىٰ أنفسنا في بعض الأحيان، ونستشعر لطفك الرباني خلال لحظة خاطفة، وحينئذ لا ندرك أنّ كافة قوام حياتنا ووجودنا يعتمد بأسره على لطـفك فـحسب، بـل ونتصور أيضاً أنك لم تخلق أحداً غيرنا، وأنك إلٰهنا نحن فقط:

وسِعَتْ رحمتُك الجميع
حتّىٰ قال كلّ عبد أنت ربي فقط

٥٥ـ إلهي ما أَقْرَبَكَ مِنّي وَأَبْعَدَني عَنْكَ وَما أرأفَكَ بي فَمَا الَّذي يَحْجُبُني عَنْكَ؟

حبيب أقرب مني إليّ
والعجيب أنني بعيد عنه
مالعمل، ولمن أقول
إنه إلىٰ جانبي وأنا محروم منه؟!

حين أشاهد الكائنات الطبيعية، لا أبصر ابداً ذلك الضـوء الذي أشـاهد بـواسـطته الموجودات الجسمانية. فالضوء هو أقرب الظواهر إلينا حين رؤية الأجسام، إلا أنّـه لا يحظىٰ باهتمامنا أبداً، عدا بعض الحالات الاستثنائية.

فقرب النور هو الذي يؤدي إلىٰ بعده. مضافاً إلىٰ ذلك أنّ أسلوب تفكيرنا هو بالشكل الذي لايمكن التصديق بأنّ الله بعظمته التي هو عليها، قريب منّا إلىٰ هذا الحد، مثلما أنّ

الإصبع ليس بامكانه أن يدرك أنّ الروح بتلك العظمة، والنشاط غير المحدود، والدقـة الخارقة للعادة، قريبة جداً إليه وكأنّها داخله.

٥٦ـ إلهي عَلِمْتُ بِاخْتِلافِ الآثارِ وَتَنَقُّلاتِ الأطْوارِ أنَّ مُرادَكَ مِنّي أنْ تَتَعَرَّفَ إلَيَّ في كُلِّ شَيءٍ حَتّى لا أجْهَلَكَ في شَيءٍ

نعم، إن اختلاف مواد عالم الطبيعة وتحولاتها المستمرة وصـورها عـبر مـختلف الطرق، يدفعنا للإقبال عليه.

مئات آلاف الأضداد تقتل أضداداً أخرىٰ
وينتشلها حُكْمُك مرة أخرىٰ
تنطلق يا ربّ في كل زمان
قافلة من العدم إلى الوجود
وتنطلق هذه القوافل ثانية
إلى العدم في كل لحظة

فهذا الاختلاف والتحول المتوالي يقول بصراحة قاطعة: لهذا النهر الجاري عين ينبع منها، ولهذا المتحرك محرّك.

إنّ ايّاً من كائنات عالم الوجود لا يصنع نظامه المستقبلي في ذاته. فنحن الناس نتصل بالكائنات الاخرىٰ بواسطة العلوم وعبر مختلف الطرق، إلا أنّ أيّاً من هذه الكائنات ليس لديه القدرة على أن يقدّم حركته الطبيعية على أنّها ذاته.

حسناً جداً، لو قلنا إنّ الحركة في ذات المادة، فهنا يطرح السؤال التالي نفسه:

هل الحركة الكلية في ذات المادة؟

وإذا أجبنا بالايجاب، فإننا مخطئون ولاشك، لأنّ الحركة الكلية نتاج ذهني ولا

موضوعية لها.

ولو أجبنا: لا، المقصود بها الحركة المحددة الحقيقية التي تحرك المادة، فهنا يطرح السؤال التالي نفسه: أية حركة محددة بإمكانها أن تكون ذات المادة ومحركة لها؟ فمن الممكن أن تقبل المادة الواحدة ألف شكل من الحركة مع مختلف النتائج والظواهر.

ونتّجه ثانية نحو اختلاف الظاهر ونقول:

لماذا يجب أنْ تكون ظواهر عالم الطبيعة مختلفة ومتضادة؟

وإذا كانت حقيقية، فمن أين تأتي هذه الاختلافات والتضادات؟

وإذا كانت المادة متعددة، فمن أين ينشأ تعددها واختلافها وانسجامها؟

وهل هي حقيقة واحدة أم عدة حقائق؟

وإذا كانت حقيقة واحدة، فمن أين يأتي هذا الاختلاف في النتائج؟

وإذا كانت متعددة، فمن اين ينشأ هذا التعدد؟

وأساساً، لماذا يجب ان تتحرك المادة؟

ولماذا اختارت هذه الحركة المحدودة؟

ولماذا اختارت القوانين والمبادئ المهيمنة على نظام الطبيعة نفس هذا الاسلوب ايضاً؟

رباه! إننا أعددنا لكل هذه التساؤلات جواباً واحداً وهو: أنت الذي تحرك عالم الطبيعة، وأنت الذي تحفظ القوانين التي تدير الوجود. رغم أن علينا ـ انطلاقاً من أوامرك ـ أن نسعىٰ ونجدّ في ميدان الحياة الطبيعية من أجل العثور على أجوبة لهذه الستاؤلات.

واذا كان البعض لايطرح مثل هذه الأسئلة، أو يترك الاجابة عليها للمستقبل، فإن هناك فئة أخرىٰ تعتقد عن يقين ـ ومن خلال وفائها الكامل وعلمها ومعرفتها وإيمانها بالتكامل التدريجي للمعارف ـ أنّ كافة اكتشافاتها ومعارفها لاتنفذ إلاّ إلىٰ ظواهر عالم

الطبيعة وسطوحه لا إلى اعماقه. لأنّ علمنا لا يتجاوز ماورد في آيتك الكريمة: «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»[١]. في حين أنّ مشيئتك هي التي تكمن خلف أساس هذه المادة والحركة واختلاف الآثار والتحولات.

ربّاه! هناك مَن يدعوك بأسماء من قبيل الله، الرحمٰن، الرحيم، الكريم، الرؤوف، إلا أن تلك الفئة ـ التي تبذل جهوداً جبارة لمعرفة عالم الوجود وتشاهد إشراف جمالك وجلالك علىٰ هذا النظام وهيمنتك المستمرة عليه ـ ستدعوك بأسماء مثل: حافظ قوانين الطبيعة، والمشرف على التحولات القائمة.

ربّاه! زِدْ مِن نورك في قلوبنا، وعطّر شامّتنا بنسيم أبديتك الذي يهب علىٰ هذه الكائنات والتحولات في هذا المعبد الكبير الذي نسميه عالم الوجود وفي هذا المصنع العظيم الذي يهزّ قلوبنا فيه الصمت المدهش لصوتك العظيم.

٥٧ـ إلهي كُلَّما أخْرَسَني لُؤْمي أنْطَقَني كَرَمُكَ

إلٰهي!

جرائري وصفاتي الشيطانية حينما تتجسد امام عيني وتضعني وجهاً لوجه أمام قِلّة أدبي وحيائي، تنتزع مني كلّ قدرة على الكلام.

ربّاهُ!

قُبحُ سريرتي أسبغ علىٰ نفسي منظراً مرعباً لا أودّ أنْ تراني فيه وأنا اتحدث إليك.

ولهذا:

أجدُ كلّ طريق للاتصال بك مغلقاً بوجهي، ولساني أخرسته ذنوبي وآثامي. فما العمل؟ هل أتحدث الى الآخرين؟

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٧.

ولابد أن أخفي قُبح سريرتي وسيرتي، وأتحدث عن محاسني وجمالاتي، وفي هذه الحالة سيبدو مظهري المرعب أكثر قذارة وقبحاً، لأنـني أضـفت إلى الريـاء أقـذاري ومساوئي.

هل أتحدث إلىٰ عالم الطبيعة الصامت المستسلم للقوانين دون أن يُثير أي صخب؟ فهذا الموجود الذي استسلم لمقنن الأزل والأبد، ماهي صلته بي انا المتمرد المتأهّب حتى لمقارعة نفسي من أجل أهوائي؟

أيها الربّ العزيز الرحيم!

ليس هناك أحد يتحدث إليه هذا الكائن التائه، ولا يجد طريقاً للـهرب مـن أدرانـه وقبائحه، لكنه لازال يمتلك ركيزة واحدة، ألا وهي كرم وجودك اللامتناهي.

كم كان جميلاً لو أني لم أكن بحاجة إلى الألفاظ، كي لا تزيد مفاهيمها من افتضاحي.

ربّاه أوصل النفس الى ذلك المقام
الذي ينبت فيه الكلام بصمت
كي تتخذ النفس الطاهرة من رأسها قدماً
وتنطلق على رأسها نحو ساحة الفناء البعيدة
وهي ساحة واسعة عريضة
يتحقق فيها منه هذا المراد «مولوي»

أيها الرب العزيز!

أكرمتنا نحن الكائنات التافهة بلباس الوجود، ووهبت لنا العقل والفكر والوجدان، كي ننجذب نحو الكمال في معبر اللانهاية. ولكن أهواءنا الحيوانية تكبّل أقدامنا وتحول دون انطلاقتنا، إلا أنّ قوتك الجاذبة نحو الكمال، ومحبتك الربانية هي التي تحطم هـذه الأغلال عن أقدامنا، بل وتزودها بقوة اكبر للاتجاه إليك بخطوات أسرع وأصلب، إدراكاً منك لنقصنا وحاجتنا.

نعم ايها الصديق العزيز:

عـــند الفـــقر، انــطلقْ فـي اللـهو والسكـر
فإكسير الوجود هذا يجعل الشــحاذ قـاروناً

٥٨ـ وَكُلَّما آيَسَتْني أوْصافي أطْمَعَتْني مِنَنُكَ

وحينما تجرني صفاتي المشينة الى اليأس والقنوط، يفتح إحسانك وفضلك أبواب الأمل والرجاء بوجهي، لأنّ كرمك العام الشامل لايعتمد في هذه المرحلة من الحياة علىٰ سلوكياتنا وظواهرنا النفسية.

٥٩ـ إلهي مَنْ كانَتْ مَحاسِنُهُ مَساوِيَ فَكَيْفَ لا تَكوُنُ مَسـاويهِ مَساوِيَ

إنّ ميولنا النفسية تحاول أن تعرض حركاتنا وسكناتنا في صورة مليحة ومـقبولة. وقد نقوم بأعمال ما فنعرضها على الآخرين وحتى على أنفسنا أحـياناً بـمظهر جـميل مستساغ. ولو كانت أفكارنا بمستوًى عالٍ، ولو كان لدينا اهتمام بأفكارنا الضعيفة أمام أفكار الآخرين المفروضة؛ لرأينا حينئذ إلىٰ أي حدّ خدعنا أنفسنا، وإلىٰ أي مدًى سقطنا في منحدر الامتهان، بتصور وصولنا إلى الكمال بالأعمال الجميلة التي قمنا بها، وحدوث حالة الشعور بالاستعلاء لأدائنا لهذه الأعمال، أو لقيامنا بتلك الأعمال بـهدف تـحقيق التكامل. وهذا الخداع الذاتي نابع من كوننا ندرك من أعماق قلوبنا أنّ إشباع شعور عبادة الذات ـ بأي طريق حتى لو كان بهدف الوصول إلى التكامل ـ لا يـتعدّىٰ حـالة تـزويق مظاهرنا القبيحة.

مالم تنثر غبار إنيّتك في ريح الفناء

فلن تشاهد الجمال الأحدي

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[١].

٦٠- وَمَنْ كانَتْ حَقائِقُهُ دَعاوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ دَعاويهِ دَعاوِيَ

التفاوت بين الحقيقة والادّعاء هو عين التفاوت بين كلمة «العسل» التي تخرج من فم شخص لم يذق العسل طوال عمره، وآخر يتذوق العسل ويتحسس لذته الحقيقية.

ربّاهُ! إنني أمضيت عمراً مع الادّعاءات الفارغة، واليوم وحين أبحث عن دليل لإثبات حقيقة هذه الادعاءات، لا أجد من دليل وبرهان غير الميول والأهواء والنزعات النفسية. ولا أدري فلربما كان العجز الذهني أو قصور مشاعري وراء تصوير ادّعاءاتي لي وكأنها حقائق. ولن أكون مقصراً في هذه الحالة، رغم عجزي عن الوصول الى الكمال.

٦١- إلهي حُكْمُكَ النّافِذُ وَمَشيئَتُكَ الْقاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكا لِذي مَقالٍ مَقالاً وَلا لِذي حالٍ حالاً

ربّاهُ!

أولئك الذين ألقوا نظرة فاحصة على النظام المتقن الجميل لعالم الوجود؛

وأولئك الذين سمعوا بقلوبهم صوت حركة حلقات سلسلة الوجود؛

وأولئك الذين اعترفوا بتفاهة تصوراتهم ومشاعرهم في معرفة هذا البحر المتلاطم الواسع؛

وأولئك الذين أدركوا استسلام أجزاء سلسلة عالم الوجود وحلقاته لحكمك النافذ

---

١ ـ سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

ومشيئتك القاهرة؛

أطْبَقوا شفاههم عن الكلام، واكتفوا بالمشاهدة اللذيذة لهذا السرادق الأزرق الحافل بالآيات. وقد تنبس تلك الشفاه احياناً ببعض الكلمات:

اِفتحِ العين لمشاهدة الصنع الإلٰهي واغلق الفـم
فالأفضل مشاهدة خط الاستاذ بدلاً من قراءته

«منسوب الى صائب التبريزي»

فهؤلاء لم يثرثروا إدراكاً منهم لضعفهم وجهلهم وعجزعم عـن فـهم مـبادئ عـالم الوجود وأسسه، العالم الذي يتصل بك بشكل مباشر، ولم يصبحوا ضحية مالديهم مـن جهل، ولهذا نجدهم ينشدون هذا النشيد بحماس وشوق:

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار»[١].

وينطلقون لأداء أعمالهم بعد أن أدركوا أن حكمتك الرائعة ومشيئتك العالية، لم تدع لهم مجالاً للاعتراض أو التساؤل. وليس بإمكانهم أن يجدوا بديلاً يتجهون إليه غـيرك، نظراً للحقائق التي تجري في ساحة الوجود الشاسعة.

رباه! اللهم قَوِّ فينا الشعور بالمسؤولية إزاء هذا الحكم النافذ والمشيئة الغالبة، كي لا نكتفي عند الجلوس تحت شجرة الخلقة بمشاهدة أغصانها وأوراقها الجميلة فحسب، بل ونتجه ايضاً لأداء المهام ونتصل باللانهاية.

٦٢ـ إلهي كَمْ مِنْ طاعَةٍ بَنَيْتُها وَحالَةٍ شَيَّدْتُها هَدَمَ أعتِمادي عَلَيْها

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٩١.

عَدْلُكَ بَلْ أقالَني مِنْها فَضْلُكَ

ونحن نؤدي العبادات ونقوم بالطاعات، قد نشعر أحياناً بتوثب حالة الاقبال على الله والتضرع إليه في أنفسنا، لكن حينما ندرك تفاهة تلك العبادات إزاء عظمته سبحانه، نجد لو أنّه حاسبنا عليها وفقاً لعدله لثبت لنا مدى خوائها.

وهناك عوامل كثيرة يمكن أن تكون دليلاً علىٰ تفاهة عباداتنا وخوائها منها:

١ـ الجهل الذي يحيط بنا. فهذا الجهل يحول ولا شك دون تبلور أيّ معرفة حقيقية برغباتنا، أي إنه لايدعنا نعرف ماذا نريد وماذا لا نريد على وجه الدقة.

٢ـ بعض المعاصي مثل إلحاق الظلم بعباد الله. فهذه المعاصي تترك آثاراً سيئة للغاية في أنفسنا تتحول شيئاً فشيئاً إلىٰ حجب تمنع شفافية الروح ونقاءها.

٣ـ عندما نرى أنّ حالة الدعاء والابتهال ـ التي هي إحدىٰ أكبر عوامل التكامل المعنوي ـ قد أدّت الى سقوطنا، نفقه آنذاك أننا لازلنا متوقفين عند نقطة الانطلاق ولم نطوِ أدنىٰ مسافة باتجاه الحق والحقيقة.

أيّها الربّ العزيز!

اللهمّ أدعُنا إليك حينما نعيش تلك الحالة التي نُقبل فيها عليك عابدين واعين رغم أنها قد لا تستغرق أكثر من لحظات، ولا تدعنا نتبجح بتلك اللحظة التي نستغرق فيها في بحر عظمتك، ولا نتخذ منها ولا من الحالات المشابهة وسيلة لتكاملنا؛ لأننا أدركنا جيداً أنّ طلب الكمال هو عين التدحرج في منحدر الحيوانية. فالاعتداد بالنفس والشعور بنيل العظمة، عقبة كأداء تعترض السائرين في طريق الحق والحقيقة.

إنّ التلذذ بنيل المقام السامي واتخاذ ذلك هدفاً، عمل حيواني ولا شك. لهذا علينا أن نطوي مراحل الكمال مرحلة بعد أخرىٰ بدون أن نفكر في التعالي والتسامي، رغم أن العظمة والسعادة تلاحقاننا كالظل في حركتنا. علينا أن نكون مثل ذلك الفلاح الذي يبذر البذور ويطلب القمح نفسه، أي إنّ علينا أنْ نجعل الوصول إلى الله هدفاً، رغم أن التكامل

سيكون من نصيبنا أيضاً.

إذا أُدرتَ انْ تعرف معنى حبّ الوطن
أطردْ عنك «نحن» و «انا» قليلاً
امنعْ لبن الحاضنة عن هذا الوليد
وأودعْ روحه عند امّه
لماذا البقاء في البئر يا يوسف؟
دع هذه البئر وخذ بهذا الحبل
وحينما يقع طير قلبك في شبكة الصياد
سينشد بعذوبة قصة النملة والطست «علي اكبر النوقاني»

٦٣- إلهي إنَّكَ تَعْلَمُ أنّي وَإنْ لَمْ تَدُمِ الطّاعَةُ مِنّي فِعْلاً جَزْماً فَقَدْ دامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً

لساني لا يلهج بحمدك وثنائك دائماً، لكنني ما إنْ أتّجه بحرقة نحو مقام ربوبيتك الشامخ، وأُطلق من أعماق قلبي عدة كلمات ثناء وحمد؛ حتى أشعر وكأنني لم أطرق في حياتي كلها باباً غير بابك ولم أتحدث إلى أحد سواك.

ربّاه! إنني أبدو صامتاً، لكنك تعلم:

أننا صامتون وصدى صرختنا
يرتطم بعرش الحبيب

أمواج حبك المتواصلة تتحرك في قلبي وتصارع اضطرابات ميولي وأهوائي الحيوانية وصخبها، وأنا أُراقب عن كثب هذه المعركة. انها معركة جديّة ومجابهة مرعبة! وأتمنىٰ من قلب ملتاع أن تنتصر أمواج حبك فيها لأنني أودّ أنْ تظل نسائم حنانك وحبك تحرك هذه الأمواج في نفسي الى آخر رمق من حياتي. لكنني لا أدري لماذا أخذت هذه

الامواج تميل نحو الخمود والصمت الموحش لتحل محلها أمواج الأوهام والخيالات الفارغة التي لا أساس لها.

آهٍ ربّاهُ:

كم كوكب قفز من الحديد

فتقبله هذا القلب المحترق وتحمله

ويظهر سارق خفي في الظلام

فيضع إصبعه على الكواكب

ويقتلها كوكباً كوكباً

كي لا يتألق مصباح في السماء «مولوي»

وأسألك اليوم أن تنصر أمواجي الإلهية هذه، وأطلب منك إنقاذ طائر السعادة الأبدية الذي يبحث الأرض برجليه تحت مخالب نسور أهوائي القوية.

فيا إلهي الرحيم، ماذا يحدث لو هبّ نسيم من الأبدية على بحر روحي الهائج المضطرب قبل أن يجفّ ينبوع روحي، وقبل أن تفشل محاولاتي الجدية للانجذاب اليك؟ أريد أن أرى انطلاقة موج جديد بفعل هبوب هذا النسيم، كي:

ينطلق بدون صوت وصدى

الى الرياض مثل الانهار الصامتة

٦٤ـ إلهي كَيْفَ أعْزِمُ وَأنْتَ ألْقاهِرُ وَكَيْفَ لا أعْزِمُ وَأنْتَ الآمِرُ

لو غفلنا عن حقيقة الأمور في أي عمل ننوي القيام به، فإن ذلك سيؤدي بنا إلى الاستقلال والأنانية، في حين أنّ:

أزمّة الأمور طرّاً بيده

والكلّ مستمدة مِن مدده «ملا هادي السبزواري»

«وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إلاَّ أنْ يَشَاءَ الله»[١].

وإذا لم نتخذ أي قرار، ولم نقرر أداء أي عمل، فإن ذلك يتعارض ولاشك مع مشيئة الله وأمره، لأنه قال:

«وَأنْ لَيسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعىَ وَأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى»[٢].

إلٰهي! إذا قلتُ «انا» فهذا يعارض قيموميتك وهيمنتك المطلقة، وإذا قلت «أنت»، أكون قد أنكرت المسؤولية.

إلٰهي! اشمل حالنا بطلفك وعنايتك، وامنحنا تلك القوة التي ندرك بها أنك أنت القادر المطلق، وأنت واهب القدرات والقُوىٰ، وأننا تلك الكائنات التي يجب أن تسعىٰ أقصى ما تستطيع للاستعانة بهذه القوى والانتفاع بها.

٦٥ـ إلهي تَرَدُّدي فِي ألآثارِ يوُجِبُ بُعْدَ ألمَزارِ فَاجْمِعْني عَـلَيْكَ بِخِدْمَةٍ توُصِلُني إلَيْكَ

كان القلب كالفرجار يدور في كافة الاتجاهات

وهو ثابت في تلك الدائرة رغم حيرته

عالم الوجود يعلن عن استعداده للتعرف عليه، فما هي وسائل تعرّفنا؟ إنها الحواس الداخلية والخارجية والآلات التي يمكن أن نفهم بواسطتها الظواهر بشكل أدق وأوضح. فهل بإمكان هذه الوسائل والآلات أن تعمل بكل أمانة وصدق كي نتعرف علىٰ هذه

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٢٣.

٢ ـ سورة النجم، الآيتان ٤١ و ٤٢.

الحقائق؟

طبعاً لا، لأنّ عدسة حواسنا وآلاتنا تتلون بتصوراتنا عن ظواهر عالم الوجود. فنحن ننظر بمثل هذه العدسة ونتصور أننا نشاهد حقائق عالم الوجود كما هي وبدون أي تغيير. ألسنا «ممثلين ومتفرجين في مسرحية الوجود الكبيرة»؟ إذاً فأنا الذي لم استطع حتى اليوم أنْ أميّز الحد الحقيقي الفاصل بين عالم الوجود والـ«أنا»، كيف يمكنني أن ادّعي أنني عرفت العالم ونفسي وأدركت هوية ماوراءهما؟

كما أن ظلمة عالم الماديات، واختلاف الظواهر، وهيمنة الكميات والكيفيات، واتّساع هذه الكائنات في نهر التكوين والعدم الدائم الجريان من جانب، ونزاهة ذلك الموجود العلوي ولطفه وقربه من هذه الكائنات من جانب آخر، قد حوّل اقرب الفواصل الى ابعد المسافات.

ضاع الطريق إلى الهدف في ليلتي الظلماء هذه
فابزغْ ياكوكب الهداية من إحدى الزوايا
تزداد حيرتي مع ذهابي لأي صوب
حذارٍ من هذه الصحراء وهذا الطريق الطويل

آهٍ ربّاهُ!

إني ومن أجل لقائك، أنظر إلى الجبال، إلا أنّ جاذبيتها المادية تحول كسَدٍّ حديدي دون رقّة الروح وعظمة غايتها. بإمكان الجبال أن تكشف لي من خلال خطوطها عن رسوب الأعصار والقرون الماضية، وبإمكان سموقها ان يحكي لي عن عظمة حجمها. وأين الجبال الشماء عن ساحة ربوبيتك؟

البحار أعظم وأروع، أحاول أن أنظر إليها عليّ أخطو خطوة إليك عبر امتدادها الواسع وأمواجها الهادرة، إلا أنّ تموجاتها تتأثر بعواملها الطبيعية. ورغم ان عظمة البحر تكشف لنا عن حالة من الاستقلال ـ ونسب إليه بلغة الأدب الوعي والارادة في تقرير

المصير ـ لكننا عندما نفرغ من التمثيل نجد أننا قد اعترانا الوهم حينما أسندنا الاستقلال والإرادة إليه، بل قد يطال هذا التوهم حتى تلك القشة التافهة التي تلعب بها أمواج البحر فتتصور أن عظمة البحر وأمواجه المتلاطمة إنما هي من أجلها!

البحر الذي من طبعه التموج
تتصور القشة تموجه من أجلها

نعم، فأنا أتوهم، والبحر يتوهم، وتلك القشة التائهة تقع هي الأخرى فريسة أوهامها.

ورغم أن البحار مشاهد عظيمة جداً، ورغم أن مشاهدتها تخلق لدينا حالة من الإثارة والهيجان لايمكن أن توصف؛ ورغم أنها تجسّد بحلقات أمواجها المتصلة سلسلة الوجود، إلا أن للبحر جاذبية منظمة قابلة للتقسيم: قد يكون ساكناً، وقد يكون مائجاً، ويمكن أن يتحول إلىٰ بخار يتبدد في الفضاء اللامتناهي.

إذاً ليس بإمكان البحر أن يقودني إليك أيها الربّ الذي لم يزل ولا يزال.

وأين هذه البحار الواسعة الهادرة عن حضرتك الربوبية؟

أُحدِّق في الأزهار الجميلة الرقيقة، فتداعب بسماتها عيني، ورائحتها الذكية شامّتي. إلا أن هذه الأزهار ورغم ما تتمتع به من رقة ونضارة وجمال، ورغم قربها من مشاعري وقلبي، تضحك من سذاجتي حينما أريد أن أتّخذ منها طريقاً إليك، وتقول: إن الجمال الذي تبحث عنه بحاجة إلىٰ عين أخرى، لأنّ هذه العين التي لديك لايمكنها أن تتجاوز بعض الكميات والنوعيات المحددة، بل حتّىٰ نحن لانستطيع بعيوننا الملوّنة المحبّة للألوان أنْ نذهب لزيارته.

إلا أنّي:

وجدتُ ما أردتُ عن طريق القلب الذي يرى الله
لا عن طريق الأرض ولا عن طريق السماء
وتلك الرائحة التي تبحث عنها سكران، بحاجة إلىٰ شامة أُخرىٰ.

من خاصية الانف أنّه يشم الرائحة
وتنقله الرائحة إلىٰ مكان

وأحدّق في الأشجار الخضراء والسهول والسفوح البهيجة، وأصيخ إلىٰ صمتها الذي يعزف أروع الالحان، فيكشف حفيفها وميسها عن سر الوجود والاسرار الدقيقة، وتنبعث في نفسي لذة وحيرة ممتزجتين بالوقار.

أريد الذهاب الى البستان بقلب منقبض كالبرعم
وأمزّق هناك قميصاً مع شهرتي بالخير
قد أُفضي الى الزهرة بالسر كالنسيم
وقد أسمع سرّ الحب من البلابل «حافظ»

وحين أتذكر أن خريفاً مدمراً سيتلو هذه الغضاضة والنضارة، ويرميها في صحراء الحياة بلا رمق ولا برعم، فتتحول أناشيدها الحلوة الممتزجة بتغاريد الطيور الساحرة إلى آهات خريفية؛ أُدرك آنئذ أنني لم أخطُ خطوة واحدة في الطريق، وأنني واقف بِحَيرة في النقطة التي بدأت حركتي منها.

فأين الأزهار والأشجار الخضراء والعشب الزاهي عن أعتابك الربوبية؟

وأنظر إلىٰ نفسي وأغوص إلىٰ أعماق القلب والعقل والخيال والوهم، فأجد عالماً أكبر من عالم الطبيعة. إنّه عالم أجمل وأصلب وأهمّ من العالم الخارجي، لأنه عالمي الخاص.

فهنا قاعدة الضمير.

وهنا يُشاهد إدراك الذات.

ومع هذا فانّ انتخابي لهذه الحقائق طرقاً للسير والسلوك إليك، سيحول دون حركتي إليك بنفس مقدار حيلولة ظواهر العالم الخارجي.

إعلم أنّ وهمنا وحسنا وفكرنا وادراكاتنا
مثل مركبة الطفل التي يصنعها من القصب

«مولوي»

الأفق اللامتناهي ممتد أمام بصري بنقاطه الذهبية، ويحلّق طائر الخيال السريع فيه بسرعة غير محدودة، ويجتاز الأجرام السماوية بخفقة جناح واحد، فيرى اللانهاية ويجوبها. لكن هل يصدق أحد أنّ طائر الخيال السريع هذا لازال حاطّاً في تلك النقطة، ولم يفتح جناحه ولم يحلّق؟

وأين الأفق المتمادي بنقاطه الذهبية عن عرشك الربوبي؟

ربّاهُ إنّي في دير الحيرة هذا
فقير اليدين ومليء القلب «العطار»

أيها الربّ الذي ليس كمثله شيء!

إذا كان لدينا أمل في لقائك من خلال كائنات الوجود أو الظواهر النفسية. فاعفُ عنّا عفوك عن ذلك الراعي العاجز الذي رآك في هيئة موسى عليه السلام القوي الضخم، واقبلنا قبولك للمعزِ التي أهداها إليك.

يفديك كل مالدي من معز
يا من إليك أنغامي

وفي تلك اللحظات سيتحول اليأس والقنوط إلىٰ سرور وأمل، لأننا ندرك جيداً أنّ الطريق الوحيد الذي يؤدي اليك وأقصرها هو الإشاحة عن كافة الطرق الاخرى، وعقد العزم الحقيقي علىٰ زيارتك.

وإذا كان الطريق إليك قريباً وسهلاً إلى هذا الحد، فلماذا لا أعقد العزم، وحينها سأرىٰ نفسي وقد وصلت إليك.

البـعض يـبحث عـن كـتابك وكـلامك
والبـــعض عـــن أزهـــارك وورودك
أمـا الفـئة المـطمئنة فـهي تـلك التـي
أفرغت قلبها من كل شيء وتبحث عنك

اللهم اسمح لي أنْ أركع بين يديك للحظات، وأُريق قطرات من بـحر روحـي عـلى أعتابك. آهٍ أيّها الأقرب مني إليّ، لقد أنهكني وأضناني تصور البعد عن باب جمالك، لا الطريق ولا المسافة.

«أشهد أنّ المسافر اليك قريب المسافة» [١].

شممتُ رائحتك من طين آدم
وقطعتُ الطرق وصولاً إليك

واليوم أرى الجبال مثل الخيلان الجميلة على وجنات الطبيعة وهـي تكشـف عـن جمالك الرائع اللامتناهي.

وأمواج البحار الصاخبة تعزف في أذني لحن سرّ الوجود. وأمعن النظر في الأزهار التي أمسكت بها أصابع قدرتك، وقَرَّبْتَها من مشام الناس.

وأرىٰ تلك الأشجار الزاهية والعشب الأخضر، وهي تكبّر وتسـبّح. ويـزداد شـغفي ووجدي وأنا أرى البراعم والأوراق النضرة الغضة وهي تنحني على بـعضها كـي تـطبع قبلاتها الحارة على الشفاه المسبّحة، ثم ترفع رؤوسها لتنهمك في الذكر والتسبيح مـن جديد. وأغوص في أعماق القلب والعقل والخيال، فأشاهد ضوءاً بـاهراً يشـع عـليها، وينفتح لي طريق مضيء يؤدي إلىٰ سويداء القلب التي هي مكانك، وأرىٰ:

---

١ ـ الامام زين العابدين عليه السلام، دعاء أبي حمزة.

لا مـقام لغـيرك فـي سـويداء الضـمير
أنت أمل أهل العرفان ولا أدري من أنت

فهذا الفضاء والأفق الواسع بنقاطه الذهبية التي إحتضنها، بـإمكانه أن يـبهر عـيني باعتباره أعتاب جلالك وجمالك.

٦٦ـ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجوُدِهِ مُفْتَقِرٌ إلَيْكَ؟

اذا كان بإمكاني أن أُدرك حقيقة الشمس من خلال صـخرة مـظلمة طـلعت عـليها الشمس وغمرتها بالضياء؛

وإذا كان بإمكاني أن أدرك حقيقة الروح وعظمتها من خلال حركة الإصبع التي تقف وراءها قوة الروح؛

وإذا كان بإمكاني أن أدرك سعة المحيط وعمقه وحـقيقته ومـحتوياته، مـن خـلال الحركة المضطربة لأشنة في نقطة محدودة جداً من سطح ذلك المحيط؛

وإذا كان بإمكاني تحديد نوعية العاصفة وكميتها ذات الصلة بكافة الوجود من خلال حركة قشّة ما؛

وإذا أُدركت من خلال ذرة متحركة في فضاء الوجود حقيقة وماهية آلاف الشموس المؤثرة في تحريك هذه الذرة؛

سأجد آنذاك طريقاً إليك ـ أيها الربّ الذي لم يزل ولا يزال ـ من خلال كافة حقائق عالم الطبيعة وظواهره!

إن وجهات نظر المطّلعين على التاريخ الانساني كافة تتفق على العبارة القائلة: «إن المجتمع البشري الذي يتحرك خلال أعـاصير الأحـداث، وقـبره بـين أحـضان هـذه الأعاصير، والباحث عن لذته فيها، من العسير جداً أن يدرك بفكره مبدأ العلية وارتباط

العلل والمعلولات»[١].

الموج يجهل حقيقة جوهر البحر
وكيف يمكن للحادث إدراك القديم «صائب التبريزي»

إلٰهي!

مثلما قلتُ قبل لحظات، إنّ ترددي في الآثار يبعد عني منزل لقائك.

والافتقار والعوز مع الاستغناء والكفاية، سلب وإيجاب. فأي من هذين المفهومين بإمكانه أنْ يدلّ على الآخر؟

أيّها الربُّ الغنّي، اسمح لشمس عنايتك بالشروق، ثم أضئ طريقي بمصباح من هذه الشمس، كي لا أشعر بالحاجة إلى النظر لهذه الكائنات الغارقة في الحاجة إليك. وبالاستدلال المستقىٰ من العقل والعلم لا يمكن أن يكون لدينا أمل بالوصول إليك أبداً، رغم أنّ هذا هو غاية مانطمح اليه ونتوخاه.

ربّنا اللطيف!

إننا أدركنا آخر المطاف وبالسعي المتواصل أنّ:

العقل سفينة والأمل دوامة والعلم شراع
والحق تعالى الساحل، والعالم بحر «مير فندرسكي»

إنّ عناصر ذلك الاستدلال التي تكتسب بدايتها ونهايتها من النتيجة، كيف يمكنها أنْ توصلنا إلىٰ تلك النتيجة التي لايوجد بينها وبين العناصر أي تماثل أو تشابه.

ثم اعود فأكرر هذا الدعاء والتضرع:

«إلٰهي تردّدي في الآثار يوجب بعد المزار».

اللهم اشملني بلطفك وعنايتك، كي اتحرر من أوهامي وتصوراتي، وأخطو إليك.

---

١ ـ بوذا، عن كتاب «فروغ خاور»، اي «شعاع الشرق»، ص ١٩٦.

فالتوقف عند شجرة الخلقة الوارفة الظلال والتحديق بها، لابد وأن يبعدنا عنك. فلنعقد العزم كي نصل اليك، ولنخطوا كي نبلغ الغاية.

٦٧ـ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؟ مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إلَيْكَ؟

رباه! عندما أتخلّىٰ عن الحالة النفسية السريعة التي تنتابني وأعود إلىٰ نفسي وأُمعن النظر، اجد: أن ضياء جمالك وجلالك في عالم الوجود أسطع من كل شيء، وليس هناك من حجاب يحجب هذا الوجود البديهي حتى أحمل مصباحاً أبحث فيه عن باب ربوبيتك، ولو افترضنا أنّ هناك حقيقة تدلّ عليك، فإن شيئاً من التأمل يجعلني أدرك أنّ صانع هذا الدليل ومسرج سراج الطريق، هو أنت لاغيرك.

ولو نظرتُ بشكل مباشر وبصورة لا إرادية إلىٰ جسمي المادي، فلن أجد غير حفنة من اللحم والعظم والشحم والدم والأوعية الدموية، لكن حينما أنظر إليه عن معرفة ووعي، سأجد في الوهلة الأولىٰ أنّي قد أدركت نفسي ثم أعضاء جسمي التي هي مصباح الطريق لإدراك الـ«أنا».

إلٰهي! كيف يمكن أن أتصور أنّ بإمكان نقطة من نقاط عالم الطبيعة، الاستمرار في وجودها بدون إشراق فيضك؟ وهل بإمكان عالم الطبيعة أن يصنع بذاته حركة وقانوناً ونظاماً؟

إعلمْ أنّ العالم بأسره نور وجه الحق
والحق فيه خفيّ لشدة ظهوره
ماأكثر الجهلاء الذين يبحثون في الصحراء
عن الشمس الساطعة بضوء شمعة

ولو كانت الشمس علىٰ حال واحد
وكان ضوؤها علىٰ منوال واحد
لم يعلم أحدٌ أنّ هذا الضوء ضوؤها
ولم يُفرّق بين القشرة واللّب
وهل تتصور أنّ العالم مستمر ودائم بنفسه!
وأنه قائم بذاته؟! «الشيخ محمود الشبستري»

٦٨ـ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً

عيناي محدّقتان في مشهد الطبيعة الكبير هذا منذ الصباح وحتّى الليل المظلم، أراقب الصغير والكبير، والحركات والسكنات، والقبيح والجميل، أرىٰ كل شيء، وأُسمّي بكلّ صلافة هٰذا التحديق بصيرة!

إلٰهي! فهل عيوني مفتوحة حقاً وبصيرة؟

فاذا كانت عيوني بصيرة، فلماذا لا أراك من خلال هذه المظاهر التي ألمحها؟

إذاً لماذا تنطبق أجفان عيوني الداخلية والخارجية حينما أتذكر إحاطة وجودك بكافة الكائنات؟ ولماذا أتجاهل الشمس الساطعة كالخفاش؟

إلا أنني حينما أنظر وأفكر بشكل صحيح أجد نفسي:

أفكر بالقافية، وحبيبي يقول
لا تفكر إلاّ في لقائي

يامن تبعث النور في الأبصار! إمسحْ بيدك علىٰ بصري وأَزِحْ بحنانك الإلٰهي الطريق أمام هذه العيون الحائرة كي أدرك إشرافك علىٰ هذه الكائنات كافة، وإشراقة نورك على بصري.

٦٩ـ وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً

عالم الوجود العظيم هذا، مَتجرٌ مدهش للغاية.

فالبعض يفقد كل وجوده أمام الطعام والنوم والغضب والشهوة العابرة. فماذا يبيع هؤلاء وماذا يشترون؟

إنهم يبيعون النفس النقية والروح الكبيرة ويشترون الملذات والترف والأهواء العابرة.

قال: ماذا يصنعون هناك؟

قال: يشترون الحزن ويبيعون الروح

«نظامي الكنجوي»

والبعض الآخر يعرض بضاعة وجوده في سوق الطبيعة، فيشتري شيئاً من الميول والحرية في إشباع الغرائز، وشيئاً من العلم والمعرفة أو خدمة الناس خلال الميل والرغبة. وهذه الفئة قد ربحت شيئاً ما، وحصلت على نتيجة ممدودة، غير أن الذي فقدته أعظم بكثير مما كسبته.

وهناك فئة أُخرى تشتري في ميدان المعاملة الندم واليأس، وتبيع الروح حتى يبدو أنها لا ترىٰ بضاعة في سوق الحياة غير الأنين والتشاؤم.

وخسارة هذه الفئة وبؤسها لايختلفان عن خسارة وبؤس الفئة الأُولى التي تبيع كافة وجودها من أجل الطعام والنوم والغضب والشهوة.

وهناك فريق آخر يعيش بوعي أكبر، إذ أدرك قيمة رأس المال الذي وُضع بين يديه خلال مسيرته الحياتية، وفهم: أنه لايمكن أن يكون الطعام والمنام، ولا حفنة من المصطلحات العلمية المحدودة، ولا تلك المعرفة البسيطة بأدوات ورشة الوجود، ولا الاعتكاف في الخرائب والبكاء والتأوّه كالبوم، ثمناً لبيع الروح الانسانية التي تحقق للانسان الكمال الأعلى. لقد شعر هؤلاء أن كسب المعرفة العامة بأوضاع العالم وتقديم

الخدمة للأحياء جديران أنْ يُشتَريا بنقود وجودهم!

ولكن ألم يطرح هؤلاء هذه الاسئلة علىٰ أنفسهم: ما قيمة معرفة العالم إذا لم يكن إلىٰ جانبها تسام نفسي ومعنوي؟ وهل تعني خدمة الكائنات الحية بدون معرفة اتّصالها بالله الأحد شيئاً سوى تربية عدد من الحيوانات الضارية التي لا تفكر إلا بمصلحتها ولا تعبد سوىٰ منافعها؟ وما هو المبدأ المنطقي الذي أقنعوا به أنفسهم؟

ورغم وجود شيء من الأنفة عند أفراد هذه الفئة، وأنهم أقرب إلى الهدف الوجودي الأعلىٰ، لكننا نقول بصراحة: إذا لم يتخذ هؤلاء مبدأً رصيناً في معرفتهم للعالم وخدمتهم للأحياء ـ لا سيما الانسان ـ واكتفوا بإشباع غرورهم وأنانيتهم، فإنهم خاسرون لا محالة، وإنّ ما يخسرونه علىٰ هذا الصعيد أعظم بكثير مما يحصلون عليه.

إذاً فمن هو الذي يُبرم الصفقة الأكثر ربحاً في سوق الحياة؟ إنه ذلك الذي يرى الحب ـ وليس شيئاً غير الحب ـ بضاعة مكافئة لروحه النقية، والذي يعادل لحظة واحدة من هياج العاطفة والحب في نفسه بعالم الوجود كافة.

وأُشير هنا الى العبارات التي أنشدتها تلك الشخصية المقدسة قبل قرون:

«إذا تحدثتُ بلغة الملائكة ولم يكن لديّ حبّ، فسيكون صوتي مثل قرقعة الحديث، وإذا كنتُ أعلم بالاسرار كافة وجميع العلوم ولديّ الايمان الكامل الى درجة أنّ بإمكاني زحزحة كافة الجبال، ولم يكن لدي حب، فأنا لاشيء؛ ولو تصدّقتُ بأموالي كافة وأحرقتُ جسمي بالنار، ولم يكن لديّ حب، فلن أجني أية فائدة.

فالحبّ صبور وعطوف، والحبّ لا يحسد، وليس فيه تكبر أو غرور، وليس لديه حركات قبيحة. والحب لا يطلب نفعاً لنفسه، ولا يعرف الغضب وسوء الظن، ولا يبتهج بالألم، إلا أنّه يفرح بالصدق والحقيقة. الحبّ حليم ويصدّق بكل شيء. وإنّ ما يبقىٰ هو

الايمان والأمل، والحبّ أكبر من الاثنين [١].

وتُطرح هنا قضية ذات أهمية كبرىٰ لا يمكن لحلاوة الحب وجماله أن يحجباها، ألا وهي:

من نحب؟

ولماذا نحب؟

وقد قيل الكثير في هذا الشأن، وسيقال الكثير. وفكر الكثيرون وسيفكر غيرهم بعد ذلك ايضاً، وكُتب الكثير من الكتب، غير أنني أعتقد بعدم الوصول إلىٰ جواب شافٍ علىٰ هذا الصعيد.

ولو أفلح الناس في تجاهل حركة الزمن في هذه القضية وفصلوا الحقيقة عن الزمن، وحفظوها مثل القاعدة الرياضية البدهية عن تلاعب الزمن، ومن أجل الإجابة على السؤالين أعلاه، عليهم أن يتّخذوا مبدأ بنظر الاعتبار. وربما سيكون هذا المبدأ بالشكل الذي عبّر عنه وايتهيد في صيغة فلسفية، وسعدي وحافظ في إطار ادبي والآخرون في أشكال أخرى. وهذا المبدأ هو:

أنا مبتهج في هذا العالم لأنّ ابتهاج العالم منه
وعاشق لكلّ العالم لأن العالم كله منه «سعدي»

***

إعشقْ وإلاّ سينتهي العالم في يوم ما
وأنت لا تعرف الهدف من مصنع الوجود «حافظ»

ونحن نعلم أنّ المراد بـ«العشق» في بيت حافظ لا يختلف عنه في بيت سعدي، لأنّ العشق المجازي هو ذلك الهوى العابر الذي لا يعجز عن تبيان هدف مصنع الوجود

---

١ ـ الحب الحقيقي الذي نتحدث عنه، لاشك إنه لا ينفصل عن إيمان أئمة ماوراء الطبيعة ورسالاتهم.

فحسب وإنما يجعلنا عاجزين أيضاً عن فهمه تماماً.

وقال وايتهيد ايضاً:

«من الممكن أن أتكهّن: أنّ العقيدة التي ستنتصر في يوم ما في المجتمعات البشرية، هي تلك التي تبعث نسيماً من الأبدية من أجل فهم الحقيقة، وتتعامل مع الكائنات كافة كحقائق عابرة لديها علائم من تلك الأبدية»[١].

وبهذا المبدأ الذي قدمه هؤلاء المفكرون الإنسانيون الثلاثة، تدرك أنّ موضوع الحب ليس أمراً كمالياً نميل إليه، وإنما هو ضرورة إنسانية لا وجود للحب الإنساني بدونها. وعبارة المفكّرين الشاعرين سعدي وحافظ واضحة، غير أن الحبّ في عبارة (وايتهيد» من خصوصيات ماوراء الطبيعة التي تهب على الطبيعة.

ولا مجال هنا للحديث عن تلك المواضع العابرة التي يرغب فيها عامة الناس ويتوقون إليها، وبهذا نصل إلى النتيجة التالية:

كلّ صورة جميلة أرتك وجهها
فلا بدّ أنْ يختطفها الدهر من عينك
فامنحْ قلبك لذلك الذي
كان وسيكون معك خلال مراحل الوجود

ياأفراد النوع الإنساني! يامن ترومون التحرك بوعي في هذه الحياة والتمتع بالحبّ! إن ذلك الذي كان ولا زال وسيكون معنا هو الله، نعم الله وحده، وحبّه فوق كافة أنواع الحبّ وأساس كل حب، وأعذب حبّ في الحياة.

فلنحبّ الله الذي أوجد عندنا دوافع الحب، ومنحنا قوة الإبتهاج النفسي في العلاقة مع الجمالات، كي نحظى بحبّه من خلال أداء التكاليف والسير في مختلف الطرق التي

---

١ ـ قصة الأفكار، ألفرد نورث وايتهيد.

حددها بما ينسجم مع العقل السليم والوجدان.

«قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله» [١].

ولو افترضنا أنّ كائنات الدنيا كافة تحبّكم بما فيها الإنسان وسائر الكائنات الاخرى، فهل حبّها من النوع الذي لا يفنىٰ ولا ينتهي؟ وهل بإمكانها أنْ تلبّي كافة مالديكم من آمال وتطلعات؟

وهل يمكن لحبها أن يغير طبعكم الحيواني ويحقق لكم الكمال على الأصعدة كافة.

إنّ حبّ الله، هو الذي يفسّر انواع الحب كافة، وهو المحرّر للروح، وآخر وسيلة لتعالي النفس وتساميها.

٧٠ـ إلهي أمَرْتَ بِالرُّجوُعِ إلَى ألْآثارِ فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ ألْأنْوارِ وَهِدايَةِ ألْإسْتِبْصارِ حَتّى أرْجِعَ إلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها مَصوُنَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها وَمَرْفوُعَ الْهِمَّةِ عَنِ ألْإعْتِمادِ عَلَيْها إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ

إلٰهي!

البعض يبحث عن كتابك وكلامك
والبعض عن أزهارك وورودك
أما الفئة المطمئنة فهي تلك التي
أفرغت قلبها من كل شيء وتبحث عنك «عرفي الشيرازي»

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٣١.

إلٰهي!

أمرتني أن أنظر إلىٰ عالم الخلق وأفقه الانسجام القائم بين ذرات الوجود التي تدور في هذا الأفق غير المحدود.

ونظرتُ في حدود إمكاناتي، فبرهن لي هذا المصنع ـ الذي هو بحاجة إلىٰ مصدر إشعاع كالشعاع العظيم، وإلى ربانٍ كالسفينة الكبيرة ـ علىٰ حقيقة وجود الموجود الأعلى الذي بيده مصير وجود الكون وعدمه، مثلما أنّ حركة الإصبع الصغير تشير إلىٰ وجود حياة وحركة غير محسوسة.

إن مشاهدة هذه السماء اللازوردية وهذا البحر الأزرق بأُجرامه العظيمة كافة، تدفعني للقول: إن لهذا المتحرك محرّكاً.

تبختر هذه السماء الزرقاء
وحركة الشمس والقمر
لاتتصور أنها لَعِب أو هزَل
أو أنّ هذا الفسطاط قائم على العبث
ليس عبثاً أيّ خيط من خيوط هذا الستار
لكننا لانبصر رأس الخيط
ولايمكن التمرد على هذه الخيوط
أو أنْ نجد رأس الخيط «ناصر خسرو»

وكشف نظامي الكنجوي عن الحقيقة بشكل أوضح:

في عالم «عالم الخلقة»
لايمكن خلق ماهو افضل من هذا
فَخَلْقي وخَلْقُك المعقَّد
ليس لهواً أو لعبا

ونقل موريس مترلينغ عن ألبرت أنشتاين وآرتور أدينغون قوله: «يوجد في العالم شيء لانعرف ماهو، ويقوم بعمل لاندري ماهو».

غير أن النضج الفكري والحياة الواعية تدفع الانسان إلىٰ عدم الاكتفاء بفهم ذلك الشيء الذي «لانعرف ماهو» ومعرفة ذلك العمل الذي «لاندري ماهو»، بل بالسعي أقصى مايستطيع كي يدرك كمال ذلك «الشيء» وعظمته وفيضه، وإشباع حسّ انجذابه نحو ذلك «الموجود»، كي يتمكن من اجتياز هذه الطرق العديدة، والوصول إلى الهدف بعيداً عن الحيرة والتخبط في الطرق الملتوية المظلمة الغامضة.

وهناك مقالة أروع تقول:

«ليست هناك من نهاية للفكر البشري. فالإنسان يبدد حيرته من خلال زجّ نفسه في خضم الأخطار والمهالك. ويمكن القول إنّه يبهر بحيرته الطبيعة من خلال نوع من ردود الفعل المتألقة. والعالم الغامض الذي يحيط بنا، يعطي كل ما يأخذ، ولعل السائرين يُسار بهم. فعلى الأرض رجال (هل هم رجال حقاً؟!) يبصرون قمم الوجود المطلق من قعر آفاق الحيرة ويصلون إلى الشهود المدهش لجبال اللاتناهي»[1].

فهل يمكن للعقل السليم أن يقنع في أنّه يعرف فقط:

هناك شيء في عالم الوجود لانعرف ماهو،

وذلك الشيء يقوم بعمل لاندري ماهو.

فهل لدينا مسؤولية إزاء هذا الشيء أو الموجود؟

وهل له إشراف علينا؟

وهل بإمكاننا الاتصال به؟

والإجابة بالنفي على مثل هذه التساؤلات، تعني تجاهل نفوسنا المشتاقة، كما أنها

---

١ ـ البؤساء، ترجمة السيد مستعان، الطبعة الرابعة، ص ٥٤.

تقودنا للوقوف ضدها.

فحينما أعود إلىٰ نفسي وأدرس نزعاتها الأساسية، أرى جواب هذه الأسئلة جواباً إيجابياً:

نعم لدينا مسؤولية إزاء هذا الموجود.

نعم لهذا الموجود إشراف علينا.

نعم بإمكاننا الاتصال به.

وعلىٰ ضوء هذه الدراسة التجريبية، يتأكد لي أنّ عليّ أن أدرك فلسفة وجودي، وأنْ أحدّد كخطوة أولى طبيعة اتصالي وعلاقتي بذلك الموجود.

فآثار عالم الطبيعة وظواهره، ليس بوسعها أن تشرح لي طبيعة هذا الارتباط، وهي لاتؤكد سوى علىٰ قرع أجراس الرحيل، وأنّ كافة هذه الكائنات في حالة حركة ودأب، مثل القافلة التي تغذ السير نحو الهدف. لكن ماهو ذلك الهدف؟ وماهي صلتي به؟ فهذا مالاتستطيع هذه الحقائق أن تجيب عليه.

بإمكاننا إدراك أنّ صلتي بهذا الموجود الرفيع ليست صلة بسيطة، بل إنها صلة ذات جانبين مختلفين: فظاهرتا جمسي المادي وحقيقتي الروحية هما من صنع يده القديرة. وفهم هذه الحقيقة أمر في غاية البساطة ويتحقق لدىٰ أغلب الناس. كما أن فهم حقيقة أنّ كل كياني من صنع الله تعالىٰ، يتضمن معنًى واضحاً يتلخص في أنني عبده ومخلوقه.

وهناك جانب أدقّ من الاتصال يتعين علينا فهمه، ولا يتحقق هذا الفهم إلاّ مع وجود البصيرة الخاصة، والسعي والجهاد النفسي والعمل الخالص وأداء المهام اعتماداً عليه. أي إنّ علينا أن ندرك أنّ للـ«أنا» وجهين:

الأول: وجهاً ميتافيزيقيًّا، أو على حد تعبير ابن سينا «وجه الى الاعلى»، وهذا الوجه المضيء يستمد نوره من الله، ولا يمكن أن يتلوث بالأدران المادية، وهو عين ذلك الوجه الذي أشارت إليه الآثار الإسلامية المعتبرة بأنه شعاع من نور الله.

الثاني: وجهاً ماديًّا، وهذا الوجه حين دخوله الى عالم الوجود، كان نتاجاً فاخراً للمادة النقية الخالية من الشوائب، وقابلاً للارتقاء والتسامي.

ولكي يتكامل هذا الوجه بشكل تدريجي ويمتزج مع الوجه الأول، أودع الله قوى الغرائز والعقل والوجدان في الفطرة مثل قطبين متضادين:

«فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا»[١].

وبعد أن خلق الله النفس، أودع فيها قوتي الفجور والتقوىٰ. ولو استعان الوجه الطبيعي المحايد بالتقوى في مواجهة القوة الأخرى، فلابد أن يتحرك هذا الوجه نحو ذلك الوجه وينال الكمال المطلوب. إلا أنّه لو رجّح جانب الفجور، فلابد أن يُحْرَم من التقرب الى ذلك الوجه ويفشل في الحصول على الرضوان الإلٰهي الكبير.

وليس من العسير فهم هذه الصلة، ولايلزم لذلك الاستعانة بتعقيدات العلوم النفسية والفلسفية، بل لابد فقط من التأمل الخالص للحظات، بعيداً عن المفاهيم الغامضة والتلاعب الفلسفي والأدبي.

والآن بإمكاننا أن نفقه معاني هذه الآيات التي توضح الصلة بيننا وبين الله سبحانه:

«فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»[٢].

«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّة فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي»[٣].

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ

---

١ ـ سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ٩.
٢ ـ سورة الحجر، الآية ٢٩.
٣ ـ سورة الفجر، الآية ٢٧ – ٣٠.

مُنْتَهَاهَا»[١].

«وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ»[٢].

«وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرِ»[٣].

«فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»[٤].

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون»[٥].

«وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون»[٦].

«إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى»[٧].

وتتضح من هذه الآيات علاقتنا بالله تعالىٰ وفق ما أشرنا إليه، كما يتضح وأكثر من أيّ وقت مضى مبدأ وجود وجهين للـ«أنا» الإنسانية.

٧١ـ إلهي هذا ذُلّي ظاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ وَهذا حالي لا يَخْفى عَلَيْكَ

ربّاهُ! يا من تعلم بأجزاء عالم الوجود كافة!

ربّاهُ! أيّها العالم المطلق! يا من تعلم بسرّ حركة النملة الضعيفة في خليتها التافهة، علمك بقوانين الكواكب التي لاتُحصىٰ في الأفق الذي لانهاية له.

يا من حركات روحنا الدقيقة واضحة لديك، وضوح الشمس الساطعة. يا من تسمع

---

١ ـ سورة النازعات، الآية ٤٢ – ٤٣.
٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٨٥.
٣ ـ سورة فاطر، الآية ١٨.
٤ ـ سورة الكهف، الآية ١١٠.
٥ ـ سورة العنكبوت، الآية ٥٧.
٦ ـ سورة البقرة، الآية ٢٤٥.
٧ ـ سورة العلق، الآية ٨.

حديث البلبل البهيج الحاطّ على الأغصان، سماعك لأنين كائن حي قطع الأمل بالحياة ويلفظ انفاسه الأخيرة.

أيها الربّ الرحيم، أنت أدرىٰ بتفاهة وجودنا، ونحن نقدم اليك هذا الوجود المتواضع على طبق الإخلاص، علّنا نحظىٰ بعنايتك ولطفك، وتجعل التكامل والتسامي من نصيبنا.

٧٢ـ مِنْكَ أَطْلُبُ ٱلْوُصُولَ إِلَيْكَ وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ فَاهْدِني بِنورِكَ وَأَقِمْني بِصِدْقِ ٱلْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ

إذا عزمتُ على الرحيل من الغربة إلىٰ بابه
سأُطلق الفرحة من عقالها وأحتزم حزام معاداة الحزن «مظاهر مصفّا»

***

سمعتُ أنّ لطف الله لايغلق باباً بوجه أحد
ولايغلق على العارفين باب الحقيقة الذي يفتحه عليهم
لاأتكلم مالم أشاهد طيفه بقلبي كالببغاء
الذي لايتكلم ولايرقّ كلامه مالم يشاهد جمال المرآة «الحكيم صفا الأصفهاني»

وقد خاطب «بريانت» وزّة قائلاً:

«عندما تبعث الشمس آخر أشعتها الحمراء، وعندما تلتصق بالأرض آخر قطرات الندى، تظلين أنتِ تحلّقين في الفضاء الواسع، وتنطلقين خافقة بجناحيك وحيدة فريدة. وعبثاً تلاحقك عيون الصياد علّكِ تخطئين خلال ذلك الطيران الطويل وتقعين في شباكه، لأنك تشقّين قلب السماء الحمراء الزاهية مثل النقطة السوداء، ولا عودة لكِ أبداً.

لكنكِ عمّ تبحثين في هذا الطيران الطويل؟

فهل تبحثين عن سواحل البحيرات المليئة بالطحالب، أم عن شواطئ الأنهار

العريضة، أم عن ساحل محيط ترتطم أمواجه العاتية بالصخور فتغمرها؟

إنها لقوى عظيمة جداً تلك التي تقودك بهذه الدقة والفطنة على الطريق عبر الساحل الملتوي وفي كبد الليل المعتم والفضاء غير المحدود، وتحول دون ضلالك الطريق.

وتظلّ أجنحتكِ تجوب ذلك الأفق البارد الخالي، وفي ذلك المدى الشاهق، وطوال النهار. وليس بإمكان الظلام ـ عندما يحل شيئاً فشيئاً ـ أن ينال منكِ أو يجهز عليكِ وأنت في طريقكِ إلىٰ وكرك.

ولن يمرّ وقت طويل حتى تنتهي مرحلة العناء، فتصلين إلى الوكر الصيفي الذي تجدين فيه ماتبغين، وتصرخين بِدَعة وارتياح، وتنحني حينئذ شجيرات قصب الأجمة أمام بيتك وتلقي عليه ظلالها.

والآن وأنتِ تمرّين من فوق رأسي، وتواصلين طريقك، وتبتلعك دوامة السماء العظيمة، أشعرُ أنَّ الدرس الذي تلقيتهُ منكِ مازال ماثلاً في قلبي، وأنا علىٰ يقين أنّه لن يخرج منه أبداً.

وأنا على علم أيضاً أنّ ذلك الذي كان ينقلك من أرض لأخرىٰ خلال طيرانك في الأفق غير المحدود، لابد وأن يأخذ بيدي أيضاً في الطريق الطويل الذي يجب أن أسير فيه، ويقود قدمي في الاتجاه الصحيح».

نعم، هو الوحيد الذي بإمكانه أن يوصلنا إلىٰ منزلنا الحقيقي، ونحن نسأله أن يوصلنا إليه، مثلما يسأل أي كائن من كائنات عالم الوجود غايته النهائية منه. فهو الذي يقود الأسماك الصغيرة إلىٰ غايتها وهدفها في غمرة الظلام وبين أمواج المحيطات المتلاطمة. وهو الذي يرشد كافة أجزاء الطبيعة ـ أحياء وجمادات ـ نحو طريقها الصحيح.

«وبك أستدلُّ عليك».

فهل هذا مفهوم أزليّ وأبديّ غير نهائي؟

وهل هذه الحقيقة التي لاتفنىٰ والتي ندعوها «الله»، بإمكانها أن تكون من صنع أذهاننا؟

ألم يضيء سبحانه هذا المفهوم الفريد في أذهاننا نحن الملتصقين بالأرض؟

وهل شاهدنا الأزل والأبد بحواسنا؟

وهل أدركنا الخلود بحواسنا؟

وهل أدركنا الاستغناء عن العلة بحواسنا؟

فلابد لنا من العودة إلىٰ أنفسنا قليلاً لنقول: لم يكن أيّ تصور من هذه التصورات من صنع حواسنا، لكننا أدركنا في نفس الوقت وجود موجود متصف بهذه الأوصاف دون أن يحمل محالاً منطقياً واحداً. وهذا يعني أنّ هذا التصور والإدراك قد سرىٰ إلينا من باب ذلك الموجود المطلق.

فعلينا أن نطلب منه ـ بالجهاد والعمل ـ استمرارية تألق وسطوع هذا النور، وعلينا أُن نكون على اتصال دائم لاينقطع بهذا النور الذي لايخبو ابداً.

«وأقمني بصدق العبودية بين يديك».

اللهم أعنّي كي أعبدك عن نية صادقة وكي لا أبدّد حياتي عبثاً في هذه الدنيا السائرة نحو الزوال.

٧٣ـ إلهي عَلِّمْني مِنْ عِلْمِكَ ٱلمخْزُونِ وَصُنّي بِسِتْرِكَ ٱلْمَصُونِ

قطرة العلم التي وهبتها من قبل
أَوْصِـلْهـا بـبـحـارك
وقطرة العلم التي في نفسي
نقِّها من الهوىٰ وشوائب الجسد

ليس لعلومنا طريق نحو الحقائق كافة، وليس بإمكانها اختراق الظواهر والآثار وصولاً إلىٰ بواطن الأشياء. ومن المؤكد أنْ ليس بإمكان أيّ أحد أن يرىٰ ـ خلال مطالعاته ـ نفسه مفكراً ألمعيّاً مالم يكن قد اعترف بجهله بشكل صريح، وأعرب عن أسفه

لكثرة مجهولاته في عالم الوجود.

معلوماتنا ـ وبشكل نسبي ـ بإمكانها فقط أن تروي من يكتفي بقطرة من البحر، أو علىٰ حدّ تعبير نيوتن:

«معلوماتنا قياساً الى المجهولات مثل حفنة من الحصى المضيء في ساحل المحيط قياساً إلى المحيط نفسه».

لا أقول: إننا لو أقمنا علاقة قوية مع الله تعالى، فمن الممكن أن نتعرف على جزئيات وكليات عالم الوجود كافة، لا، بل من الواضح أن المشيئة الإلٰهية تقتضي أن نحصل علىٰ هذه المعرفة بالسعي والعمل الدؤوب.

كما أني لاأقول: إنّ الانسان بإمكانه أن يدرك حقائق عالم الوجود كافة بما فيها المشيئة الإلٰهية، لكن بإمكاني القول: إن الانسان ومن خلال التقوىٰ واستخدام العقل السليم والوجدان الرباني، يستطيع أن يقف بشكل كامل على موقعه الوجودي في هذا العالم، وأن لايشعر بالأذىٰ في هذا الطريق الذي آلم الكثير من الناس وأفزع قلوبهم، وأن يضفي علىٰ علمه المحدود سمة ربانية.

نعم، إن هذا العمل ليس متعذراً علينا. فنحن ومن خلال معرفة علّة وجودنا، نبدو وكأننا قد تعرفنا على أجزاء عالم الوجود كافة.

فإذا كانت لدينا معرفة بعلّة وجودنا وموقعنا الحقيقي، فلابد أن تعذّبنا مجهولاتنا الطبيعية بحجم ذلك العذاب الناجم عن عدم وجود أُصول الحياة المادية وفنونها والعجز عن إيجادها.

فنحن نولي أهمية فائقة للظواهر والحقائق المادية في تنظيم الحياة، إلا أنّ نسبية الحصول عليها وتدريجيتها، يجرانا إلى الوبال.

والنتيجة هي أننا محرومون في حياتنا من المزايا وأحياناً من الضروريات، وحينما نجهل علة وجودنا، فلن يكون للحياة أيّ معنًى حتّىٰ ندرك ماهو نقصها وماهو كمالها!

ولهذا فإنك لن تجد عالِماً يتأوه ويتحسر ويتشاءم ويغضب لأنّه فشل في معرفة أجزاء الطبيعة. فالعلماء لايشعرون بالشقاء والتشاؤم لأنّ الماضين احتملوا ـ على سبيل المثال ـ وجود عناصر أخرى في عالم الطبيعة، وفشلو هم في العثور على هذه العناصر. فلو تأخر اكتشاف الجاذبية الأرضية لَما نادىٰ أحدٌ منهم بالويل والثبور، ولو تأخر اكتشاف الالكترونات لقرنين من الزمن، لما بكىٰ أرنست روترفر، ولما انتحب جورج طومسون من أجل ذلك.

والأمر لا يختلف عن ذلك في هذا اليوم أيضاً. فرغم أننا نعلم بوجود آلاف المجاهيل خلف ستار الطبيعة، وأنّ اكتشافها سيحقق لنا نجاحاً منقطع النظير في معرفة الطبيعة، غير أنّ العلم بهذه الحقيقة لايسبب لنا أيّ انزعاج نفسي أو أي شعور بتفاهة الحياة.

لكن منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا، هناك العديد من الناس الذين يشعرون بالألم والسأم لأنهم يجهلون موقعهم الوجودي في هذه الحياة، ويعلمون أنّ معرفتهم بموقعهم الوجودي وفلسفة وجودهم، من الممكن أن تدفعهم نحو مزيد من الانتفاع بحياتهم.

وحينما يقول مسيح الكاشي:

تجمعتْ كُوَم الاستياء في قلبي
ولو تخلّصتُ من هذا المأزق
لخرجتُ أظلع نحو بوابة الوجود
ولن أسمح لأُحد أنْ يخرج من العدم

لايقصد: لماذا يظهر الناس إلى الوجود ولا يعرفون الرياضيات العالية؟ وهذا التأوه والتشاؤم الذي يطلقه الكثيرون ممن هم علىٰ شاكلة مسيح الكاشي يعود إلى ظهور قناعة لدى الإنسان تقول: مافائدة الحياة إذا لم يحرز فيها الانسان موقعه الوجودي.

ومع مثل هذه اللامبالاة حول معرفة الموقع الوجودي للانسان التي تصدر عن بعض

المفكرين لايُستبعَد ان يُنظَر الى الانتحار كالنظر إلىٰ تحطم قدح ماء. وأنا بدوري أرىٰ صحة هذا العمل ومنطقيته ضمن هذا الاطار، لأن الذي لايعرف لماذا يعيش، وماذا يُراد منه خلال العمر المحدود، وما معنى الحسن والقبح، أعتقد أنّه مغرم بعدة جِفان من الطعام، وعدة أمتار من اللباس، ومتأثّر علىٰ عدد من الاشخاص البائسين التائهين مثله. فما هو المنطق الذي يمكن لمثل هذا الشخص ان يتحمل به مشاق الحياة وصروفها؟!

ألأنّه حيّ فحسب؟!

ماأتفهه من هدف!

وستجدون في العبارات القادمة الى أين وصل الجنون البشري!

وهناك قضية فلسفية جدية وهي: لماذا نحن أحياء؟

وما أشرت إليه في الأسطر السالفة، لم يكن حفنة من الجمل العاطفية الجميلة، وأعتقد ان كل من يفكر في ما أشرت إليه تفكيراً دقيقاً، لابد وأن يصل إلىٰ نفس النتيجة التي وصلت اليها.

صحيفة «اطلاعات»، السبت ١٩٦٧/١٢/١٧، العدد ١٢١٥٩، نقلاً عن صحيفة «تايم» الامريكية:

«يعتقد البير كامو أنّه: توجد هناك مسألة جدية واحدة وهي الانتحار. وبعبارة اخرى: ماهو الشيء الذي يجعل من الحياة ذات قيمة؟ والجواب الديني علىٰ هذا السؤال لازال على قوّته، لكن قلما يلتفت الناس إليه.

وأغلب الناس يبرر لنفسه الإجابة التالية علىٰ هذا السؤال: «لذة الحياة حتّىٰ في لحظات اليأس، تدفع الإنسان إلىٰ حبّ الحياة. وإجابة البيركامو هي أنّ الثورة علىٰ فلسفة «عبثية الوجود» التافهة، أمر رائع للغاية، لأنّ الحياة هي الثورة، ولهذا السبب عُدّ الانتحار نوعاً من الاستسلام».

وألقى البيركامو سؤالاً في غاية الروعة، إلا أنّ جوابه لم يكن مقنعاً بأي حال من

الاحوال. وهذا النوع من الاجابة يُقال له في المنطق «المصادرة بالمطلوب». والمصادرة بالمطلوب تعني أنّ المرء وبدلاً من أن يقدم دليلاً أو برهاناً لإثبات مدّعاه، يلجأ إلىٰ تكرار نفس المدّعىٰ. أي شبيه بذلك الذي يقول: أنا أعرف علم الفيزياء، وحينما يُسأل: ماهو دليلك؟ يجيب: لأنني أعرف علم الفيزياء! وهذا في الواقع تكرار لنفس الادعـاء، وهـو جواب خاطئ من وجهة النظر المنطقية، بل إن خطأه حقيقة فطرية بدهية.

والخلاصة فإن معرفة قيمة الحياة تعتمد علىٰ تحديد الموقع الحقيقي للإنسان خلال مرحلة حياته في عالم الطبيعة. وهذا التحديد سيرسخ ـ مع العزم عـلى أداء التكـاليف ـ الموقع الوجودي له والذي لابد وأن يؤكد علىٰ ضرورة الاتجاه إلىٰ المبدأ الأعلى شـاء الانسان أم أبىٰ.

٧٤ـ إلهي حَقِّقْني بِحَقائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ وَاسْلُكْ بي مَسْلَكَ أَهْلِ الْجَذْبِ

أولئك الذين تقرّبوا إليك ونالو مرادهم خلال ذلك، إنما كُشِفت لهم أرسخ الحـقائق وتخلّصوا من اضطرابات الشك والحيرة، فوصلوا إلىٰ هدوء اليقين.

ولاشك إن الكائنات الانسانية أتفه من أن تتّحد مع الوجود الإلٰهي، ولايمكن تحقيق مثل هذا التصور، لكننا نعلم أنّ الإنسان بإمكانه أن يحصل على العظمة النفسية من خلال التوجهات الصحيحة، والسعي والجهاد الرفيع الدائب خلال الحياة. وهذه العظمة النفسية تكون من الشموخ في بعض الأحيان بحيث يمكن عدّها شعاعاً من النور الإلٰهي.

فالانجذاب نحو الله، هو التخلق بأخلاقه.

فحينما يُجذب المرء نحو اللانهاية، يدرك بشكل كامل أنّ وجوده الضعيف التافه قد اكتسب شموخاً ليس بإمكان هذه الالفاظ العادية أن تنبئ عنه، وليس هناك لذة اعظم من حالة الجذبة هذه.

٧٥ـ إلهي أغْنِني بِتَدْبيرِكَ لي عَنْ تَدْبيري وَبِاخْتِيارِكَ عَنْ إخْتِياري

نحن ندرك بعض الحقائق النسبية بعقولنا ومشاعرنا، لكننا لانعي التدبير النهائي للأمور أبداً، ولهذا فإن تدابيرنا ناقصة دائماً ولن تكون إرادتنا كاملة في يوم ما.

اذا لم يكن القضاء هو الذي يحوّل حال الناس
فلماذا تجري الأمور خلافاً لما يريدون؟
القضاء هو الآخذ بأزِمّة الناس إلى الخير والشر
لأنّ التدابير خاطئة بأسرها
الزمن يرسم ألف صورة، ولا صورة منها
تشبه مايظهر في مرآة تصورنا

ولو أبدينا أقل تساهل خلال عملية الاستسلام المدهش تلك، لدهانا الاضطراب والحيرة. ولو تجاهلنا هذا الاستسلام لسقطنا في هوة الشعور بالاستغناء، فالطغيان.

علينا إذاً أن نفكر جيداً على هذا الصعيد، ونرىٰ إلىٰ أيّ حدٍّ يتدخل الله العظيم في أمورنا.

وليس هناك من شك أن العوامل القاهرة والمتغلبة تحيط بنا من كل جانب، وأنّ باطننا وظاهرنا محفوفين بالمقتضيات التي تنقض استقلال أفكارنا وتدابيرنا.

أنا كالقشّة في الريح العاتية
لاأدري أين أسقط
وأُهرول في المكان، ولا مكان
أَمام هراوات حُكم كن فكان «مولوي»

وأولىٰ نظام اتّساق كائنات عالم الطبيعة ـ والذي نحن الكائنات الانسانية جزء منها ـ أهمية لاختيارنا وسعينا ونشاطاتنا. ونحن الذين يجب ان نصنع العناصر المتعلقة بنا في

نظام الطبيعة المرن. ونحن الذين نخلق الأمواج الصغيرة في البحر غير المحدود، للطبيعة ذات التأثير في النظام العام.

فمعنىٰ «إلٰهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري» هو أن ينظّم الله تعالىٰ عوامل نشاطاتنا ومن بينها التدبير والاختيار، كي يمكننا أن نفيد من هذه العوامل أقصى ما يمكن، وليس أن نرفض التدبير أو الاختيار، لأنّ ما تؤكد عليه الآيات القرآنية وسائر الوثائق الاسلامية المعتبرة والعقل السليم والضمير هو أنّ عالم الوجود ميدان العمل الدؤوب والسعي المتواصل، وأنّ علينا مكافحة عوامل الطبيعة والجهل بكل مالدينا من قُوًى، كي نحقق على هذا الصعيد ماينفعنا في حياتنا المادية والمعنوية.

٧٦ـ وَأَوْقِفْني عَنْ مَراكِزِ اضْطِراري

إن أهم عوامل جهلنا التي تؤدي إلى حرماننا من التكامل المادي والمعنوي، هي عجزنا في الغالب عن التمييز بين مواقع الاختيار ومواقع الاضطرار، أو فشلنا في تحديد ما يجب تحديده، لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الاختيار ذو درجات ومراتب مختلفة، وليس حقيقة بسيطة ذات حدود واضحة يمكن للإنسان أن يستخدمها بشكل كامل.

والحقيقة إن هذه القضية من أعقد القضايا النفسية، ولاشك أن أي جزء من أعمالنا التي نؤديها علىٰ أساس الاختيار، لابد وان يتّسم بالسمو ولابد أن نتمتع نحن بالاستقلال النفسي. ولهذا فإنّ هذه الفقرة من الدعاء، تعدّ إحدىٰ أعظم الفقرات الناطقة بالحكمة والعرفان التي نعرفها.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا لتحديد مواقعنا النفسية كافةً كي نميز بين الاختيار والاضطرار.

ربّاهُ! إنّ إنسانيتنا تتجلىٰ حينما نؤدي أعمالنا عبر أسلوب الاختيار. أي إن كافة

مسؤولياتنا ومهامنا تدور ضمن مدار الاختيار.

فالإنسان هو الذي يتحمل المسؤولية.

والشخص المختار هو الذي ينهض بأية مسؤولية ملقاة على عاتقه. فموضع الرقي والانحطاط إذاً هو ذلك الموضع الذي نملك عنده الاختيار. بعبارة أخرى إن اكثر مواقفنا حساسيةً هو ذلك الموقف الذي نملك فيه حق الاختيار والذي يمكن أن نصوغ لأنفسنا ـعلى أساسه ـ شخصية إنسانية راقية، أو نسقط به إلىٰ أدنى الدرجات الحيوانية.

ولاشك إنّ الحصول على الاختيار يعني الحصول علىٰ أعظم الوسائل التي تعيّن المصير الحقيقي للإنسان. كما أن استثمار «الاختيار» يعني استثمار الوسيلة الفريدة لتحقيق أسمى الأهداف.

والاختيارات العظيمة ـفي الواقع ـ ذات أوقات قصيرة، إلا أنها من حيث النوعية والتأثير تسلك سلوك العامل الوحيد في سعادتنا وشقائنا.

ونحن نعلم أن مشعل الاختيار الظريف الحساس، ليس بإمكانه مجابهة عواصف الحوادث الباطنية والخارجية.

فنهر روحنا الجاري باستمرار، نجد مياهه عكرة في أغلب الأحيان، أو أنّ أمواجه محفوفة بالأسرار، ومبهمة إلىٰ درجة يتعذر علينا معها تحديد نقاطه الرائقة الشفافة وتمييزها والتي تأمن فيها النفس من لسعات عوامل الاختيار. كما أن العلل والمعلولات النسبية تتحرك بدون فاصل زمني، ولاتشغل حيزاً، أو تشكّل نقاطاً هندسية معينة كي يمكن فصلها عن بعضها.

إن تقدم عناصر اللاشعور وتأخرها وفعلها وردة فعلها وسريانها نحو الشعور وبالعكس وعوامل الارادة والعزم، تجعل من الحركة الباطنية حركة مبهمة وغامضة إلىٰ درجة لايمكننا معها أن نميز بين الشفافية والعتمة وبين الظلام والضياء. لكننا ورغم هذه الأوضاع المربكة ندرك أننا قد نملك أنفسنا في بعض الأحيان، وقد نخسرها احياناً

أخرىٰ. ولحظة اختيارنا هي تلك اللحظة التي ملكنا فيها النفس ولم نخسرها.

يارِبَّ عالم الوجود، أيّها العالِم الظاهر والخفي، أيـها المـراقب المـطلق لأمـواج عواصفنا النفسية، امنحنا قوة التمييز كي لاتستولي علينا الحيرة في تحديد الاضطرار والاختيار، وكي لاندع النفس في مهبّ عوامل الإجبار، لأنّ

أمواج بحار الروح العاتية
هي أسوأ مئات المرات من طوفان نوح
أخي، اصطحب معك العقل للحظة
لأنّ فيك خريفاً وربيعاً دائماً

٧٧- إلهي أَخْرِجْني مِنْ ذُلِّ نَفْسي وَطَهِّرْني مِنْ شَكّي وَشِرْكـي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسي

إنّ أسوأ حالات الانهيار النفسي، تلك التي لا يشعر فيها المرء بتفاهته وذلته، لأنّ هذا الشعور لايمكن أن يتحقق دون أخذ الهدف الذي وضعه نصب عينه بنظر الاعتبار. ولهذا فإن أولئك الذي يفتقدون للهدف في هذه الحياة لانجد لديهم أي شـعور بـالسقوط أو الاعتلاء، بل وليس لديهم «حُسن» و «قُبح». إنهم يعيشون دون أن يفكروا بأي هدف أو يولوا أهمية لشيء، منصرفين عن الحقائق كافة. إنهم يبحثون فقط عن فريسة يفترسونها ويشبعون بطونهم منها.

ومن أجل أن لانبدّد عمرنا عبثاً في هذه الحياة، فلابد أن يكون لدينا هدف. ولكي يتحقق هذا الهدف، علينا أن نسعىٰ في هذا الطريق ونكافح لنيله. وستكون الذلة والصغار من نصيبنا حينما نقصّر في نيل ذلك الهدف، وننال التكامل والتسامي حينما نـتابع ذلك الهدف ونسعىٰ بجد لتحقيقه.

والشك والارتياب، من أسوأ أمراضنا النفسية، لأنه يدفع النفس الانسانية للخروج عن طريق الاستقامة والاعتدال. والشك أنواع مختلفة حسب موضوعه:

فقد يكون موضوع الشك في بعض الاحيان ظاهرة غير جديرة بالاهتمام، سواء كانت هذه الظاهرة مادية أومعنوية. وفي مثل هذه الحالة لايكون مرض الشك شديداً وقاسياً بحيث يشلّ الروح ويقعد بها عن أداء أعمالها العادية.

وقد يكون موضوع الشك من الأمور ذات الصلة بالحياة الانسانية، ويؤدي استمراره الى استفحال المرض النفسي حتى أنه قد يعرض الحياة إلى الخطر.

والشخص الذي يرغب في العيش بهذا العالم عيشاً قائماً على الحسابات، فليس لديه موضوع اهم من موضوع الخالق المطلق. وإذا ساور الإنسان الواعي الشك في هذا الامر، فإنه سيصاب بمختلف الأمراض المؤلمة التي لاتطاق.

ايها الاختيار، يا أجمل اسم يحمل أسمى الحقائق.

يا أدقّ وسائل تقويم الناس.

البعض يهرب منك، والبعض الآخر يثني على ضرورتك وعظمتك.

وأولئك الذين أدركوا موقعهم الحقيقي، تُزهر قلوبهم منك، كما أنّ سرّ حياتنا الصاخبة مودع فيك.

إننا نسحق أعظم أسس شخصيتنا حينما نتجاهلك أثناء محاولتنا التستر على سلوكنا الحيواني.

اننا في تلك اللحظة التي نفكر فيها في نكران الاختيار، نكون قد أدركنا الاختيار. وإذا ما أدرك أحدنا الاختيار بشكل كامل، فليس بإمكانه تجاهل الشعور بوجوده، وسيرىٰ في هذه الحالة عدم وجود اي عامل يقسره علىٰ إنكاره ورفضه.

أيها الاختيار!

من العبث أن نحاول صرفك عن أنظارنا من خلال عدة مفردات، أو مصطلحات

مستقاة من عالم الطبيعة، لأنك تحدق للحظات كثيرة في مظهرنا الداخلي المصطنع وتكشف لنا عن حقيقتنا.

نحن نريد أن ننكرك كي ننكر الحسن والقبح، وننكر الحسن والقبح كي نتجاهل التكليف ونتهوّر، وسوف لن نملك آنذاك أي دليل لأي مفهوم قيّم سامٍ حول الناس من تلك المفاهيم التي ملأت الأذهان والكتب.

أيها الاختيار!

إننا حينما نحقق فيك باستخدام المفاهيم والقضايا ذات الظاهر العقلي، فلا نترك سفسطة إلا ونسجناها من أجل رفضك وإنكارك، ولا مغالطة إلاّ وأستخدمناها من أجل حجب رؤيتك.

ويكشف الندم والخجل وشيء من الحسرة عن ومضات حياتنا السالفة، ونقول بصراحة: واأسفاه!

كم رقدّتُ ظمآناً إلىٰ جانب النهر

حتى اجتازني ماء الحياة

فنحن نعلم أنّ لحظات الاختيار الكامل قصيرة.

ونعلم أيضاً أنّ أغلب أعمالنا محاطة بالاضطرار والإكراه والإجبار والعادة، إلا أنّ شخصيتنا قد تعثر خلال تلك اللحظات القصيرة على ذاتها في ساحة الوجود، وتدرك معناها في عالم المعنىٰ.

٧٨ـ بِكَ أَنْتَصِرُ فَانْصُرْني وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلا تَكِلْني وَإِيّاكَ أَسْأَلُ فَلا تُخَيِّبْني وَفي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلا تَحْرِمْني

أللّهم إني أطلب النصرة منك، فلا تبخل بها عليّ، كما إن توكلي واعتمادي عليك فلا

تدعني لنفسي، وسؤالي منك فلا تُدخل اليأس إلىٰ قلبي، ورغبتي في فضلك وإحسانك فلا تخيّب رغبتي ولا تحرمني من فضلك وإحسانك.

٧٩ـ وَبِجَنابِكَ أنْتَسِبُ فَلا تُبْعِدْني وَبِبابِكَ أَقِفُ فَلا تَطْرُدْني

إلٰهي المنزّه وربّي الرحيم!

إني أنتسب إليك فلا تقصِني عن بابك، فإني وإنْ كنت قطرة في بحر عالم الوجود اللامتناهي، إلا أنني على أية حال ذرة منتسبة إلىٰ شمس وجودك الساطعة، ولهذا لن أشعر باليأس أبداً، لأنني قطرة من ذلك البحر الذي ينبع منك ويجري إليك، وذرة أتحرك في ذلك الفضاء غير المحدود شوقاً للعاطفة السرمدية المتألّقة.

إلٰهي:

لو شعّتْ شمس حنانك على الذرة
لرقصتْ وتباهتْ على الكون

ربّاهُ!

قطعتُ الطرق، وطرقتُ آلاف الأبواب خلال حياتي طمعاً في الوصول إلى الهدف، غير أني لم أسمع أي صوت يُشيع الهدوء في نفسي. فكلما طرقت باباً ولم أسمع صوتاً، تصورتُ أني لو طرقتُ باباً آخر لوصلتُ إلى الهدف، إلا أنّ كافة الابواب التي فُتحت بوجهي، كان خلفها صحارى مرعبة وغابات مطلسمة. حتى طرقتُ بابك في نهاية المطاف. ولن أطرق بعد اليوم باباً غيره. فهنا هدفي النهائي، لأنه الباب الذي تنتهي إليه طرق الحق والحقيقة كافة.

كان مكاني في الدير وقدمي وصلت إلى الحرم
وطرقتُ ألف باب قبل أن أطرق باب الكبرياء

وضعتُ قَدم الوجود عند عتبة القِدم
وركزتُ عَلَم الشهود بين يدي الله

فهنا بابُ المعتكفين في حرم سرِّ عَفاف الملكوت؛ ومنْ أوصل نفسه إليه فلن يُطرد عنه أبداً.

٨٠ـ إلهي تَقَدَّسَ رِضاكَ أنْ تَكوُنَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ تَكوُنُ لَهُ عِلَّةٌ مِنّي؟

٨١ـ إلهي أنْتَ ٱلغَنِيُّ بِذاتِكَ أنْ يَصِلَ إلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ غَنِيّاً عَنّي؟

الرضا والطمأنينة ظاهرتان ناجمتان عن تحقيق رغبات وحاجات الكائن الحي. وهذا يستلزم بدوره أن يشعر ذلك الكائن بالحاجة إلىٰ تحقيق موضوع الرغبة والحاجة ـسواء كان تحقيق تلك الحاجة يتم علىٰ يد ذلك الكائن نفسه أو من قبل جهة أخرىٰ. والذات الربانية منزهة عن الحاجة إلىٰ شيء أو الرغبة فيه، أو أن يحصل لديها الرضا والطمأنينة من تحققه.

وأنا ومن خلال البرهنة على استغنائك المطلق، أدرك ما أنا عليه من حاجة وفقر، وأشعر أنّ كل سعي وجهد أبذله، ستنعكس مردوداته عليّ، ولن يكون له أدنى تأثير علىٰ مقامك الربوبي الشامخ.

٨٢ـ إلهي إنَّ ٱلْقَضاءَ وَٱلْقَدَرَ يُمَنِّيني وَإنَّ ٱلْهَوى بِوَثائِقِ الشَّهْوَةِ أَسَرَني فَكُنْ أَنْتَ النَّصيرَ لي حَتّى تَنْصُرَني وَتُبَصِّرَني وَأَغْنِني بِفَضْلِكَ حَتّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبي

حلقات سلسلة الكائنات المتصلة الموجودة في ساحة القضاء والقدر، تخلق لديّ الآمال والأمنيات.

أقول: سأُحقق غداً آمالي علىٰ أساس هذه العوامل المحدّدة.

وأقول: لو أنجزتُ العمل الفلاني، فلاشك أنني سأنال ما أصبو إليه.

والقضايا التي أدّت إلىٰ نجاحي في الماضي، أرسم في ذهني مايشابهها، وأعتبرها وسيلة للوصول الى ماأريد ثانية.

كم هي الآمال البعيدة والأمنيات غير المتيسرة التي أُحلّق على أجنحتها!

إلا أنني وللأسف الشديد لم أسمح لنفسي أن أقول ولو مرة واحدة:

أصبح قلبك بيت الأمل، والأمل سمّ
فلماذا عجنتَ القلب بالسم الزعاف؟ «ناصر خسرو»

لماذا أضع يداً علىٰ يد وأنتظر سلسلة أحداث القضاء والقدر؟

لماذا أجلس علىٰ أمل أن تساعدني إحدىٰ حلقات هذه السلسلة يوماً في نيل مرادي، مما يعني تدميري بواسطة طاحونة الحوادث؟

ولماذا أصر علىٰ معارضة السعي والجهاد تحت هذا السرادق الكبير؟

فأنا الذي يجب أن أحدّد مصير القضاء والقدر من خلال جهودي ونشاطي إلى الحد الذي يتصل بعملي القائم على الاختيار.

فالاكتفاء بالأمل والجلوس بانتظار الحوادث، لايختلف عن تصرف ذلك الذي يقعد في طريق السيل ويقول: عندما يطغو السيل المدوي، وينطلق نحوي، فلابد أن يأتي معه

بلوح، وسأمسك بذلك اللوح وأنجو من الغرق!

فإذا كنتُ عاقلاً، وإذا كنتُ أُدرك حقاً موقعي في الوجود، كان عليّ أنْ أبتعد عن طريق السيل، وأجعل قضائي وقدري مأمناً بعيداً عن السيل المدّمر الكاسح.

الويل لي ، لقد قعدتُ على أمل القضاء والقدر من جهة، وأسرتني حبال الشهوات الغليظة إلىٰ درجة لم أعد أملك حرية التفكير والعمل من جهة أخرى.

ربّاهُ! إنني أعيش مع كل هذه الآمال والأمنيات القريبة والبعيدة، كما وإنني مكبل بأغلال الشهوة الحيوانية، ولا أدري لماذا أهرب من الحقائق إلىٰ هذا الحد؟ ولا أدري لماذا أقطع أغلب سني حياتي غير مكترث برعاية الأصول الحقيقية؟!

ربّاه!

غداً يطلّ عليّ سفير الأجل، ويأخذ رسول الموت بتلابيب وجودي، وينثر غبار هذا الوجود في صحراء العدم، وتصبح عظامي المتهرئة أدوات لعب أطفال القرية الذين يحرثون الأرض بمحاريثهم.

اللّهم انصرني وامنحني البصيرة وعرفني قيمة وجودي قبل أن تنتهي هذه الأيام العابرة.

نحن لانريد من الابصار

سوى البصر الثاقب الذي اخترته انت «مولوي»

٨٣ـ أَنْتَ الَّذي أَشْرَقْتَ الْأَنْوارَ في قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ وَأَنْتَ الَّذي أَزَلْتَ الْأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبّائِكَ حَتّى لَمْ يُحِبّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَؤُوا إلى غَيْرِكَ

القـــلب بـــيتُك أُطـــهِّره لك مـــن الدنس
لانك ضيف في هذه الخربة ولا أعرف ذاتك

ربّاهُ!

المعرفة الحقيقية والعبودية الحقة بحاجة إلىٰ عنايتك ولطفك. فـلتشع أنـوارك فـي قلوب الأطهار من أبناء آدم، واسبغ عليهم نعمة المعرفة والتوحيد العظيمة. فهؤلاء قـد جاهدوا، وطهّروا ضمائرهم من الأدران فأرشدتهم إلى الطريق «والذين جـاهدوا فـينا لنهدينهم سبلنا»[1].

إنهم اتّقوا، ولهذا وصلوا إلىٰ مقام العلم والمعرفة الشامخ: «واتقوا الله ويعلمكم الله»[2]، وحاسبوا أنفسهم محاسبة دقيقة فوصلوا إلىٰ هذه النتيجة:

يجب أن نطرد من القلب كل أحد غيرك، وأن نخاطب كائنات عالم الوجود كافة التي بإمكانها أنْ تجذبنا إليها، قائلين:

القلب يذكرك تارة ويذكره تارة أخرىٰ
إذهبْ أنت، فالقلب لايستوعب حبيبين

نعم:

حينما رسمتُ صورة جمال الحبيب في القلب
رميتُ بحبّ هذا وذاك من قلبي دفعة واحدة

٨٤ـ أنْتَ ألْمُونسُ لَهُمْ حَيْثُ أوْ حَشَتْهُمُ ألْعَوالِمُ

طلبنا الزينة والحلية في عهد الشباب
ثم أقبلنا على العلم والكتاب

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٢٩.
٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

وحين فهمنا تفاهة هذا العالم القصير
نفضنا أيدينا من كل شيء وصرنا كالسمندر [١]
وهتفنا يا ربّ يا رب

فما لم يجد الانسان نضجه الفكري والوجداني، ستبدو كائنات عالم الطبيعة الملونة كافة، جذابة في عينه وباهرة وبهيجة، كالطفل الذي وضع للتوّ قدميه على الأرض فتختطف يداه كلّ شيء ويبهر عينيه كلّ منظر. فالطفل يفقد إرادته امام أدوات اللعب، لكن ما أن يتكامل نشاطه الذهني بشكل تدريجي، حتى تتضح له جديّة حقائق الحياة، فينصرف عن اللّهو بقضايا الحياة التافهة، لأنه سيطّلع علىٰ تفاهتها وعدم أهميتها شيئاً فشيئاً. وما إنْ يخطو خطوات أسمىٰ في طريق الحياة ـ لاسيما إذا كان من أهل العلم والفكر ـ حتى ينظر إلى وسائل اللهو واللعب الطفولية كعقبات ومعرقلات؛ لأنّ حل المسائل الرياضية المتطورة؛ أو الانغمار في أمواج القضايا الاقتصادية المعقدة أو المشاكل الأخرى التي تواجهه خلال مرحلة تبلور شخصيته الاجتماعية؛ أو حمل مسؤولية قيادة الناس، ستجعل جميعها من وسائل تسلية أيام الطفولة قضايا غير مفهومة لديه، مما يعمل بالتالي على خشيته وابتعاده عن هذه الوسائل التي تعيقه عن الانطلاق نحو الأهداف الحياتية العليا.

هذا العالم ايها الكرام مثل شجرة
ونحن فيه مثل ثمار نصف ناضجة
إنها ثمار متصلبة على الاغصان
ولا يليق بغير الناضج أن يُقَدَّم في القصور
لكنها حين تنضج، يطيب أكلها

---

١ ـ السمندر: عظاية خرافية يُقال انها قادرة على العيش في النار. [المعرّب]

وتصبح سهلة القطف
وحين يحس الفم بحلاوتها
تفقد الدنيا حلاوة ملكها «مولوي»

وأوضاع الناس على هذا المنوال ايضاً، لأنهم لو نظروا الى أوضاع هذا العالم ببصيرة نافذة، لوجدوا أنّ أيّاً من هذه الظواهر بتنوعها وسعتها وجلالها وجمالها، ليس بإمكانها إشباع نشاط الروح اللامتناهي، لهذا يلجؤون وبكلّ جدّ وجهد لتنظيم حياتهم، ويولون أهمية للنشاط الحياتي لاتقلّ عن الأهمية التي يولونها لنشاطات الروح وفعالياتها الميتافيزيقية، لأنّ وَجْهَي «أنا الطبيعية و الماوراء الطبيعية» لايتّسمان بالاعتدال دون أن يكون بينهما تنسيق وانسجام. وهذه هي مقدمة تحقيق الأهداف النهائية للروح والتي يمكنها إشباع النشاط الروحي غير المحدود.

٨٥ـ وَأَنْتَ الَّذي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمُ الْمَعالِمُ

حينما يعزم العاشق على السفر
هل بإمكانه أن يصل إلى الغاية؟

ربّاهُ!

أولئك الذين ساروا في الطريق اعتماداً على عظمتك وقدرتك لمعرفة حقائق عالم الوجود، كنتَ أنت الذي أخذت بأيديهم وأرشدتهم إلىٰ ماوراء الطبيعة، فاجتازوا شِعْباً بعد آخر بإخلاص ونية صادقة، وفتحت لهم بوابة مدن الحب السبع، وطهّرت قلوبهم من أدران الشهوة والنزوة، وبدّدت ظلمتها بأنوارك.

٨٦ـ ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَمَا الَّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ

هناك الكثير من الأشياء التي تبهرنا خلال حياتنا:

فالثروة، والشهرة، والمقام، والشخصية، وتحقيق الآمال والأماني، والتغلب على العقبات، وإشباع الغرائز بشكل عام وغيرها، أمور ذات بال ومهمة بالنسبة لنا.

إنها مزايا حياتنا، ولا نبخل من أجل نيلها بتقديم أنواع التضحيات! وكل أمر من هذه الأمور بإمكانه أن يبتاع أرواحنا الكبيرة بشكل كامل، ويستهلك أعمارنا الثمينة عن اختيار او اضطرار.

هذا في حين أن هذه الامور تُعَدّ ضرورية أو شبه ضرورية لحياتنا الفردية أو الاجتماعية ضمن حدود الاعتدال والقانون. إذاً ماالعمل؟

فهل ننزوي ونتقوقع تاركين للأقدار أن تفعل ماتريد ولعوامل الإزعاج الإنسانية والطبيعية أن تطوي ملف حياتنا بذريعة أنّ روحنا العظيمة لا يجب ان تنشغل بهذه الأمور، أم أنّ علينا أن نسعىٰ لنيل هذه الأمور من أجل إحراز النجاح في الحياة واستمرار الكرامة الفردية والاجتماعية؟

وأغلب أفراد النوع الإنساني وحتى بعض المفكرين او المتظاهرين بالفكر، لم يفلحوا حتى اليوم ـ وللأسف ـ في الإفلات من طوق هذين السؤالين، ويتصورون أنّ علينا انتخاب أحد أمرين: إما الحصول على الأمور التي أشرنا إليها من أجل الكفاح في ميدان الحياة الصاخب واستمرار هذه الحياة، أو الاهتمام بالروح والتخلي عن كافة الظواهر ذات الصلة بالحياة الطبيعية. وهذا الطوق الوهمي قد منع الإنسان منذ مدة طويلة عن فهم الحقائق، فجعله يعيش محدودباً تحت وطأة هذا التناقض المصطنع ولاهثاً ضمن إطار هذه الحياة المخدِّرة الفارغة.

فهل نعجز عن السعي لصنع حياة منظمة، كأحد الوسائل المهمة لتربية الروح؟ وهل نعجز عن اعتبار تلقي العلم لإيجاد الانسجام بين الحياتين المادية والمعنوية، تكليفاً إلهياً

يؤدي الى ارتقاء الروح؟ وهل هناك تفاوت بين الجامعة والمصنع والمسجد وكل معبد آخر من حيث كونها مراكز تعمل على استمرار الحياة المادية والمعنوية التي يريدها الله تعالىٰ؟

إن «كلا»، هو الجواب الصحيح علىٰ كافة هذه الأسئلة. إلاّ أنّ علينا أن لانعبد نتائج وعلل المصنع والجامعة كالصنم، وأن لانطوق أنفسنا بها، وعلينا أن نعلم أنّ هذه الأماكن وإنْ كانت ذات جانب فريد في حياتنا، لكن يجب ان نتعامل معها كوسيلة وليس كهدف نهائي. وفي هذه الحالة يزول التناقض والتضاد لدى الانسان البصير وتتجلى الحقيقة أمامه كعنصر متألق واضح، لأنّ من يرى الله ويقول «أنا أنتسب إليه»، لابد وأن يكون قد ثبت له أنّ مقتضيات مشيئته عبارة عن: أنّ التعلم والاستطاعة والسير في الطريق تعني الحصول علىٰ حياة نظيفة، ولا تلغي أو تشطب علىٰ جوهرة الوجود الثمينة.

أما إذا لم يكن لدينا أدنى اهتمام بالخالق المطلق، وإذا لم ننسب وجودنا إليه، ونعتبر أنفسنا في حلٍّ من أي حساب إلٰهي، فما هي الحقيقة التي سنحصل عليها؟

ليس سوى أننا نأكل ونشرب ونتلذذ، ونتجاوز عند الضرورة ـ وحتى في غير الضرورة ـ علىٰ حقوق الآخرين، شأننا في ذلك شأن الحيوان الضاري الوقح النهم غير المكترث!

أيّها الربّ العليم الرحيم!

إنّ من وجدك، رأىٰ كل شيء عداك وسيلة، وأفلح في الحصول علىٰ كل شيء، ولا يتأثر لفقدان أي شيء. أما ذلك الذي فقدك، فإنه فقد كلّ شيء، ولن ينفعه أي شيء.

ولاشك أن حياتنا يُرثىٰ لها إذا كانت كما قال الشاعر:

تتلمذنا زمناً في صغرنا على الاستاذ
وسررنا زمناً آخر أنّا أصبحنا أساتذة
وماذا جنينا آخر المطاف؟
خرجنا من التراب ثم أصبحنا هباء

٨٧ـ لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دونَكَ بَدَلاً وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً

يارَبِّ أزح غمّ كلّ أحد غيرك من قلوبنا
لأنّه نتاج عقيم من نتاجنا

الصور المزركشة الساحرة لعالم الوجود، تجذبنا إليها بعض الوقت، ثم تبرز صورة أروع فتمحو الصورة الأولىٰ من روحنا وتجذبنا إليها بدلاً من تلك. وتلاحقنا في كلّ يوم صورة أجمل تقطع عمرنا كالزيت الذي يسهّل على النشار قطع الخشب. وحينما ندقق النظر، نجد أنّ الأحابيل والمعاندات والألعاب الصبيانية كافة تكمن خلفها علة واحدة ألا وهي عبادة الذات التي تستولي علىٰ حياتنا.

ربّاهُ!

رُحماك! عرّفنا لأنفسنا، وعرّفنا بقيمة أنفسنا، كي نرىٰ إلىٰ أيّ حدّ يجب أن نهتم بأنفسنا، وماهو شأننا، وماهو موقعنا الحقيقي في عالم الوجود.

إنّ عبادة الذات هي التي قادتنا نحو الوثنية والصنمية، وعبادة الذات هي التي تحول دون القيام بتقويم حقيقي صحيح لأنفسنا.

نعم،

ليس من السهل أنْ نأمن أنفسنا
ولايمكن العثور على شراب الشوق مجاناً
وذلك الخمر الذي تشتاق إليه الأرواح
لاتُباع جرعته بمائة ألفِ روح
لاتتصور أنّي أخاف من ذلك العالم
أو أخشى من الموت والاحتضار

المـــوت حـــق، فـلماذا أخشـاه؟
وإنـما أخشـىٰ مـن عـبادتي لنـفسي

فهذا الوجود التافه الذي يتلوّىٰ أياماً قصيرة كالدودة في هذه الأرض، هل يستحق العبادة؟ وهذا الكائن المكبل بالشهوات والأهواء العابرة والذي يُخدع في كـل سـاعة بشكل من الأشكال، ماهي قيمته حتّىٰ يستحق العبادة؟

كم هو مؤلم ومؤسف أنْ نعبد هذا الوجود التافه بدلاً من الله الذي ليس كمثله شيء والقادر المطلق والعالِم الأزلي الأبدي الذي يراقب كلّ حوادث وجودنا!

٨٨ـ كَيْفَ يُرْجى سِواكَ وَأَنْتَ ما قَطَعْتَ الإِحْسانَ وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ ما بَدَّلْتَ عادَةَ الْإِمْتِنانِ

اذا مددتَ يدَ الحاجة، فَمُدَّها إلى الله
فهو الكريم الرحيم الغفور الودود

إننا في كافة لحظات حياتنا، لن نجد أنفسنا يوماً في الكمال المطلق أبداً. فـالنقص المادي والمعنوي وبمختلف أشكاله يضرب حولنا طوقاً محكماً. وإذا رضخنا لهذا الوضع القائم، فما هو تفاوتنا عن الحيوان إذاً؟ لكن حينما ننظر إلىٰ داخل أنفسنا، نجد أنّ هناك معركة خفية محتدمة بين النقص والكمال. فمن هو الذي يقودنا في هذه المعركة؟ ومن هو الذي يقوّي من عزيمتنا ويكتب لنا الغلبة والنصر؟ ومن هو الذي نرفع إليه أيدي آمالنا طالبين منه القوة والمدد؟

أللّهم امنحنا القوة وأرشدنا يا من أنت غاية الكمال، ويا من أنت واهب القوة للروح والجَنان، ويا من أنت هادي الكائنات نحو الكمال. يا باعث القوة والعـزيمة فـي كـافة المخلوقات، ودليل كلّ متحرك.

٨٩ـ يامَنْ أذاقَ أَحِبّاءَهُ حَلاوَةَ الْمُؤانَسَةِ فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ

عشّاق باب جلالك وجمالك ذاقوا حلاوة أُنسك، وأمضوا حياته مع لذائذ ماوراء التصور، وليس بإمكان الوحشة والانتظار أن يتغلبا علىٰ وجودهم. إنهم أبدلوا جهاد الروح مع المادة إلى انسجامٍ من مستوًى رفيع، ومرارة الحياة إلىٰ حلاوة منعشة، أستئناساً منهم بك.

نعم،

الخيال يرسم لي صورة منك في كل لحظة
فَلِمَنْ أقول ماذا أرىٰ خلف الحجاب «حافظ»

***

المقيمون ببابك لهم عالَم في كل لحظة
والسائرون في طريق حبِّك لهم في كل لحظة عالَم «خواجوي الكرماني»

***

كلما ألقيتُ نظرة علىٰ وجهه
رأيته أجمل من ذي قَبْل

الكثير من الناس مصابون بمرض النفور من المكررات انهماكاً منهم في عبادة جمالات عالم المادة. وتكرار استثمار ظواهر عالم الطبيعة الرائعة يمنع الروح عن الانطلاق نحو التجدد ويصيبها بالذبول. والعجيب أنهم كلّما عادوا إلىٰ أنفسهم وجدوا كأس الحياة الذهبي ـ الذي يضعون شفاههم عليه أحياناً وهم يطلقون ضحكةً لامعنًى لها أو يريقون دمعة حارقة لا أساس لها ـ خالياً من الخمرة، وقد تصفّح الشعور الكاذب باللذة صفحات عمرهم كافة إلىٰ آخر ورقة.

تعالوا كي نجعل لذائذ حياتنا متّسقة مع لذة الأنس بالله، وسنرىٰ حينئذ حتّى النكبات والويلات التي قد تملأ وجودنا أحياناً وتحطم ملايين اللذات، نوعاً من التقويض الذي

يعقبه تشييد قصر أسمق من السابق في باحة النفس.

٩٠ـ وَيامَنْ أَلْبَسَ أَوْلِياءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِهِ فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَغْفِرِينَ

إلٰهي أضفيتَ علىٰ أوليائك من العظمة والهيبة والجلال ماجعلهم يقلقون من شعور المعارضة لمشيئتك، فاندفعوا لتدارك ذلك، فوجدوا في المعاصي والذنوب ما يتعارض مع طبيعة النفس التي هي شعاع من أنوار جمالك، فأقبلوا عليك مستغفرين.

أيّها الربّ الرؤوف!

رغم أنّ المعاصي والجرائر قد لوّثت أرواحنا النقية وأقصتنا عن هدف الخلقة الأعلىٰ، إلا أنّك جعلت نظام خلق الروح مرناً بحيث تعود إلىٰ حالتها الطبيعية من خلال توبة نصوح واحدة وندم حقيقي واحد، وكأنّها لم تقترف ذنباً.

وهذه قوة أخرىٰ تتدفق إلىٰ روحنا المضطربة وتعزّز من حركتنا نحو الكمال.

ربّاهُ!

تلطّف علينا بتوفيق التوبة والعودة إلىٰ بابك الفيّاض، ولا تدعنا نتخبط في ظلمات الجهل والانحراف.

٩١ـ أَنْتَ الذّاكِرُ قَبْلَ الذّاكِرينَ وَأَنْتَ الْبادي بِالإِحْسانِ قَبْلَ تَوَجُّهِ الْعابِدينَ وَأَنْتَ الْجَوادُ بِالْعَطاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطّالِبينَ

قبل أن تعلن الكائنات كافة ـبما فيها الانسان ـعن التوبة، وقبل أن يقبل عليك عامة الناس، وقبل أن يسألك السائلون شيئاً، فانّهم كانوا حاضرين في مقام علمك، وكانت فيّاضيّتك ـالتي هي مصدر إحسانك وجودك وعطائك ـمقدمة على مسألتهم.

ربّاهُ!

ماكـنّا نـحنُ ومـا كـانَ طـلبنا
وإنما لطفك يسمع مالم نتفوه به

فإحاطتك العلمية، وفيّاضيّتك علىٰ عالم الوجود، إنما هـما فـوق الزمـان ومـاوراء المكان، وليستا بحاجة إلى الوجود المعلوم والطلب والطالب.

٩٢ـ وَأَنْتَ ٱلْوَهّابُ ثُمَّ لِما وَهَبْتَ لَنا مِنَ ٱلْمُسْتَقْرِضينَ

هذا هو الكرم الذي لاحدود له، وهذا عطاء الغني المطلق الذي يقترض من عـباده تلك النعم التي وهبها لهم لإدارة شؤون حياتهم، أي إنه سبحانه يتعهد بأداء ما اقـترض منهم إمّا في هذه الدنيا أو في دار البقاء والخلود.

٩٣ـ إلهي أُطْلُبْني بِرَحْمَتِكَ حَتّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَاجْذِبْني بِمَنِّكَ حَتّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ

كيف يمكننا مع هذه العيوب والأخـطاء التـي تـلفّ وجـودنا أنْ نـطلب الوصـول والانجذاب إلىٰ دائرة الجاذبية الإلٰهية؟

كيف يمكننا أنْ نطلب الحضور في الباب الإلٰهي الأقدس علىٰ أساس اللياقة؟ فهل ننقي أنفسنا ونؤدي التكاليف الفردية والاجتماعية طبقاً لما يريده الله تعالىٰ؟ فهل نفكّر في معرفة أنفسنا؟

وهذه النشاطات والأعمال العلمية والصناعية والفنية التي نؤديها في عـالم المـادة والماديات خدمةً لمصالحنا المادية، هل نؤدي عُشْـراً مـنها مـن أجـل مـعرفة أنـفسنا وإصلاحها؟

كلا، أقسم بالله أننا لانؤديها من أجل إصلاح أنفسنا والتعرف عليها، حيث:

نحن كالدواب حين تشرب الماء
فزعنا من أنفسنا حين رأيناصورنا [١] «مولوي»

ربّاهُ!

إذا أردتُ الدخول إلىٰ ميدان نفسي، فأي «أنا» سأواجه؟ هل سأواجه الـ«أنا» التي تتصور أنها الهدف والآخرين وسيلة، وتصطاد الآخرين علىٰ هذا الأساس؛ أم أواجه الـ«أنا» التي أعمتها النزعة نحو اللذائذ الحيوانية حتى أنها لاتستطيع أن تخطو خطوة أبعد من الوحل الذي غطست فيه وهو وحل الأنانية والمصالح؟

ورغم هذا، فإن رحمتك ياربّ قد سبقت كلّ شيء، وليست بحاجة إلىٰ أيّ دافع أو علة أو مكافأة، وبإمكانها أن تأخذ بيدي وتنتشل هذه الـ«أنا» الساقطة في وحل الذلة، وترفع هذا الرأس.

٩٤ـ إلهي إنَّ رَجائي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإنْ عَصَيْتُكَ كَما أنَّ خَوْفي لا يُزايِلُني وَإنْ أطَعْتُكَ

من أجل فهم حركة الرجاء والأمل غير المحدود في النفس، علينا أن نفكر للحظات في عظمة الله واستغنائه المطلق، وندرك خير ذاته القدسية المحض وحكمته ومشيئته ولو

---

١ ـ هذا البيت جزء من أبيات وردت في ديوان شمس التبريزي، يقول فيها مولوي:

سمعنا شهرة جمالك من أنفسنا
وهرولنا في حبك كالهواء والماء والنار
ولو قُطِّعَت الأيدي في جمال يوسف
فانظر في روحنا ماذا قطّعنا نحن!

بمستوى استيعابنا الذهني والنفسي، وسنجد حينئذ عدم وجود أي سبب لقطع الأمل عن ذلك الفياض المطلق، مالم يصل زيغنا الاختياري عن الحق والحقيقة إلىٰ درجة الانقطاع عن حكمة الله ومشيئته ولطفه ورحمته وعدم بقاء أية ثغرة في النفس يمكن أن ينفذ منها نور الأمل.

ربّاه!

نسألك أن تنقذنا من السقوط في هذه الهوة السحيقة.

ربّاهُ!

نحن ومهما بلغت طاعتنا، ليس بوسعنا أن نجزم بوصولنا إلىٰ مقام المخلصين.

ربّاه! إنك علّمتنا: أن نخشىٰ في كل لحظة من الانحراف عن الصراط المستقيم حتى إزاحة الحجب، والوصول إلىٰ مقام العبودية الشامخ.

انا غلام ذلك الذي هو في كل رباط
ولا يعتقد انه قد وصل الى السماط [1]
فالمخلص في خطر مستمر
مالم يصل إخلاصه إلىٰ حدّ الكمال
والطريق مليء بقطّاع الطرق
ولا ينجو إلاّ من كان في أمان الله
إنّه مخلص وليس مرآة خالصة
ومقنص لم يصطاد الطير بعد
وينجو المخلِص حينما يصبح مخلَصاً
وينتقل إلىٰ مقام الأمن والفوز

---

١ ـ وهذا البيت يعني: أنا غلام ذلك العارف الذي لم يخطر بباله يوماً أنّه قد وصل إلىٰ مقام العرفان الإلٰهي السامي. [المعرّب]

ولن تعود المرآة حينئذ إلىٰ حديد
ولا الدقيق إلىٰ قمح
ولا العنب إلىٰ حصرم
ولا الفاكهة الناضجة إلىٰ الفِجّة

٩٥ـ فَقَدْ دَفَعَتْنِي الْعَوالِمُ إِلَيْكَ وَقَدْ أَوْقَعَني عِلْمي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ

ربّاهُ!

ظهرتِ العوالم إلى الوجود طبقاً لحركة قوانينك العظيمة، وتحركت هذه العوالم حتّىٰ وضعتْ وجودي في عالم الوجود علىٰ أعتاب بابك.

إلٰهي عرّف هذا العبد المحتاج علىٰ عظمتك ونظامك وهدفية عالم الخلقة المعتمد عليك منذ بدء ظهور عالم الوجود الذي يُعدّ وجودي جزءاً منه ومساهماً في حركته. أليس الذي يعلم من أين أتىٰ وكيف أتىٰ، لابدّ وأن يعلم أين يذهب وكيف يذهب؟

قال امير المؤمنين وأمير قافلة الخلقة عليه السلام:

إِنْ لَمْ تَعْلَمْ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ لاٰ تَعْلَمُ إِلىٰ أَيْنَ تَذْهَبُ».

ربّاهُ!
أين التراب وأين العالم المنزّه!
أين التراب وربّ الأرباب!
إنّ مصدر هذا الذوق
ذلك الذي يمتلك الجاذبية

فأين هذا الإنسان المتولد من التراب وهذا الكائن العاجز المرتبط بأضعف العروق والأنسجة الجسمية؛ وأين المقام الربوبي الشامخ الذي تبدو العوالم اللانهائية أمام عظمته حتى أقلّ من إدراك العدد (٢) من قبل الدماغ البشري العجيب الذي يمتلك ١٢ـ ١٥ مليار اتصال كهربائي، وحافظة عظيمة بإمكانها تسجيل مليون مليار معلومة؟

فهل غير الكرم الإلٰهي شيء آخر بإمكانه أن يضع هذا الكائن الصغير جداً أمام ذلك الموجود العظيم غير المتناهي ويقيم بينهما الاتصال؟

٩٦ـ إلهي كَيْفَ أخيبُ وَأنْتَ أمَلي أمْ كَيْفَ أُهانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلي، إلهي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي الذِّلَّةِ أرْكَزْتَني أمْ كَيْفَ لا أسْتَعِزُّ وَإلَيْكَ نَسَبْتَني إلهي كَيْفَ لا أفْتَقِرُ وَأنْتَ الَّذي فِي الْفُقَراءِ أقَمْتَني أمْ كَيْفَ أفْتَقِرُ وَأنْتَ الَّذي بِجُودِكَ أغْنَيْتَني

أمر عجيب للغاية أنْ لاأشعر بالعزّة والكرامة وان أحسّ بهما في نفسي، أو أنْ اشعر بالفقر وأنا أخوض في الغنىٰ!

نعم هذا هو الفارق بين الاتصال بالله وبين الانفصال عنه. فلو نال الانسان شرف الاتصال بالله والوقوع في مدار جاذبيته، لكان إنساناً عزيزاً وشريفاً وغنياً ولتمتّع بالوجود الحقيقي في هذا العالم الكبير. وإذا انقطع عن الله ورفض أن يكون عبداً له، لكان ذليلاً وفقيراً وممتهناً وأذلّ من كل شيء.

٩٧ـ وَأنْتَ الَّذي لا إلهَ غَيْرُكَ تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيءٍ فَما جَهِلَكَ شَيءٌ وَأنْتَ الَّذي تَعَرَّفْتَ إلَيَّ في كُلِّ شَيءٍ فَرَأيْتُكَ ظاهِراً في كُلِّ شَيءٍ وَأنْتَ الظّاهِرُ لِكُلِّ شَيءٍ

ربّاهُ!

إنّ غبار الجهل والغفلة قد غشّىٰ أبصارنا حتّىٰ بتنا نجهل بواطن الأشياء التي لها معرفة بمقام ربوبيتك الشامخ، في حين نمضي عمرنا مع أنواع الوسائل للوصول إلىٰ معرفة عميقة بالأشياء والظواهر والقضايا الثانوية والعرضية، ثم ندّعي بعد ذلك أنّنا علماء

وحكماء وعرفاء! حتّىٰ أنّ الأمر قد اشتبه علينا أيضاً.

أللّهم أعنّا كي ندرك معنى التوبيخ والتحذير التالي:

مادمتم تسيرون نحو الجماد
فمتى تكون لكم معرفة بروح الجماد؟
في حين أنّ:

الجبال تتجاوب مع صوت داود
والحديد يتحول في يده إلىٰ شمع
والهواء يصبح حمّالاً لسليمان
والبحر يتحدّث مع موسىٰ
والقمر رهن إشارة أحمد
ونار إبراهيم تتحول إلىٰ روض
ويبتلع التراب قاروناً كالحيّة
ويشمخ عمو الحنانة نحو السماء
ويسلّم الحجر علىٰ احمد
ويبعث الجبل رسالة إلىٰ يحيىٰ
وكافة ذرات العالم تتحدث إليك
سرّاً في الليل والنهار وتقول:
نحن نسمع ونبصر وفي سرور
ولا نتحدث مع غير المحارم
نحن صامتون وصدى صرختنا
يرتطم بعرش الحبيب

نعم،

مادمتم تسيرون نحو الجـماد [المـادة]
فمتى تكون لكم معرفة بروح الجـماد؟
إنـطلقوا مـن الجـماد إلىٰ عـالم الروح
واســـمعوا قـــرقعة أجـــزاء العـــالم
ستسمعون تسبيح الجمادات بـوضوح
وتـــزول عـــنكم وســاوس التأويـل
ولأنّ أرواحكـم خـالية مـن القـناديل
اتـــخذتم أســلوب التأويـــل
وادّعاء الرؤيـة ليس سـوىٰ خـيال واه
بـــل إنّـــه جـدار أمـــام الرائـــي
ولأن الجمادات تحملكم على التسبيح
فكأنـــما هـــي التـــي تســبّح

«مولوي»

ربّاهُ!

لقد رأيتك جهراً في كل شيء، ولايمكن أن تكون هـذه المشـاهدة نـاشئة إلا عـن إفاضتك الربوبية، لأن كافة وسائل إدراكنا وعلمنا ـ بدءاً بحواسنا وانتهاء بأدقّ وسـائل المعرفة ـ عاجزة تماماً عـن تـقديم حـقيقة فـوق الكـميات والنـوعيات والنـواقـص والزيادات، وفوق الحركة والسكون والزمان والمكان والفضاء المطلق اللامحدود. وتقوم هذه الافاضة والإشراق، على الوجود الفيّاض الواهب للإشراق، والنور الذي لم يزل ولا يزال.

٩٨ـ يا مَنِ اسْتَوى بِرَحْمانِيَّتِهِ فَصارَ الْعَرْشُ غَيْباً في ذاتِهِ مَحَقْتَ الْآثارَ بِالْآثارِ وَمَحَوْتَ الْأَغْيارَ بِمُحيطاتِ أَفْلاكِ الْأَنْوارِ يامَنِ احْتَجَبَ

في سُرادِقاتِ عَرْشِهِ أنْ تُدْرِكَهُ ألأبْصارُ يامَنْ تَـجَلّى بَكَـمالِ بَـهائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ مِن ألإسْتِواءِ كَيْفَ تَخْفى وَأنْتَ الظّاهِرُ أمْ كَيْفَ تَغيبُ وَأنْتَ الرَّقيبُ الْحاضِرُ إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ وَالْحَمْدُ لِلّهِ وَحْدَهُ.

هذا العرش العظيم محاط بالذات الإلٰهية والعلم الربوبي. ويمكن اعتبار هذا العرش أيضاً وسيلة وأرضية لتكوين مصنع الخلقة، المصنع الذي يملكه المطلق المتعال، ولهذا يُسمّىٰ بالكرسي ايضاً.

وفي هذا المصنع العظيم تزول الآثار بواسطة الآثار والأغيار بواسطة الحقائق العالية المحيطة بأفلاك الأنوار الإلٰهية.

يا أجلىٰ حقيقة، وأيّها الكامل المطلق الذي أحاط كمال نوره وضيائه بكافة الوجود وهيمن عليه.

ألقيتَ ظلالك علىٰ رسوم الكون
أنت واحد وبعثت الهيجان فيه
أنت خفي كالبرعم، واضطراب غلبة الحب
أَلْقَيْتَهُ في فِطرة البلبل الصادح
كلّ رسام آخر، لايرىٰ هذا الرسام
واذا رآه، سقط القلم من يده لفرط الدهشة

شكراً لله الواحد الأحد.

تم بعون الله وإحسانه الانتهاء من شرح هذا الدعاء المبارك بطهران في ١٩٩٧/٢/١٥ المصادف ٦ شوال ١٤١٧.

وتم الانتهاء من تعريبه في ١٩٩٨/٨/١ المصادف ٨ ربيع الآخر ١٤١٩.